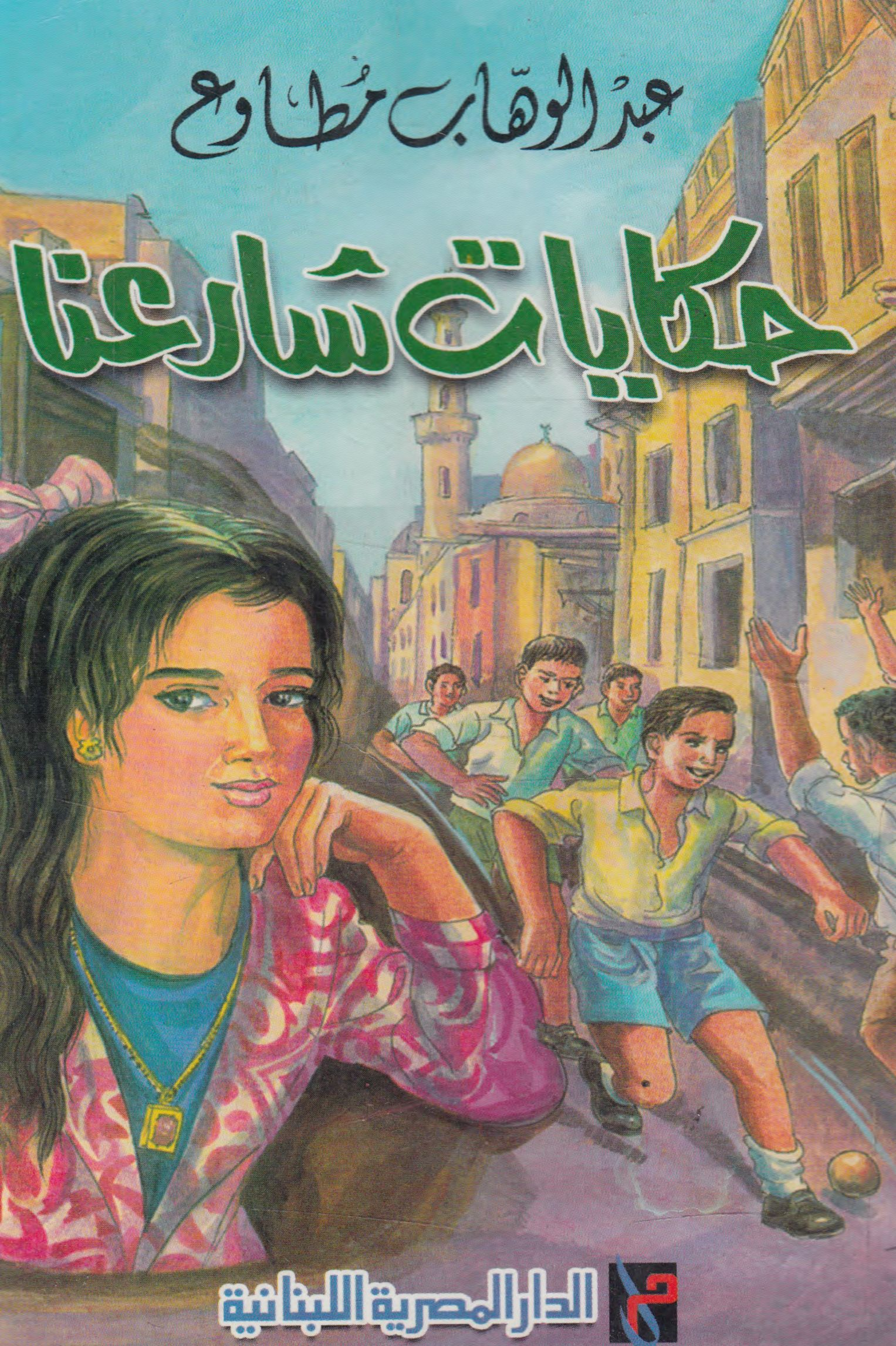


عبد الوهّاب مُطاوع
حكايات شارعنا
الدار المصرية اللبنانية

حكايات شارعنا

©
الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 18245 / 2001
الترقيم الدولى : 8 - 709 - 270 - 977
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الثالثة : محرم 1427هـ - فبراير 2006 م
الطبعة الرابعة : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008 م

عبد الوهاب مطاوع

حكايات شارعنا

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾

صدق الله العظيم

حكايات شارعنا

هذه بعض حكايات شارعنا القديم فى إحدى مدن الأقاليم ، حيث نشأت وامتزجت بترابه وشاركت فى شئونه خلال مرحلة الطفولة .. أسترجعها الآن من الذاكرة المجهدة وأستعيد معها بعض ملامح شخوصها الغائمة فى مخيلتى .. وأتأمل ما كان من أمرهم وأمر شارعنا وأمرى معهم .. لعلك ترى فيها صورة لعصر مضى .. وجيل قاربت شمس حياته على المغيب ..

« عبد الوهّاب مطاوع »

الانحنـــــاء

أجلس فوق مقعد بجوار مكتب أبى فى تجارته . . أتأمل البضائع والبشر والعمال . . أرقب الحمالين يعملون بهمة فى نقل البضائع من المحل إلى عربات اليد الخشبية التى يدفعونها أمامهم بأيديهم . . أو عربات الكارو . . لم تكن عربات النقل الخفيف قد ظهرت بعد فسدَّت الطريق على مثل هذه الوسائل البدائية . . أنظر إلى أبى ـ وهو منهمك فى عمله ـ بحب وإعجاب ، أرى يده تكتب أوراقًا صغيرة تعطيها للزبائن، وتقبض النقود، فتضعها فى الدرج المقسم إلى خانات . . أتعجب : كيف لا يخطىء فى الجمع أو الحساب ، رغم ضغط العمل وكثرة الأيدى الممدودة إليه ؟! . . بهذه الأوراق الصغيرة يتجه المشترون إلى داخل المحل ، فيسلمهم العمال ما هو مكتوب فيها من أشياء ، ويضعونها أمام المشترى على « رخامة » عريضة تعترض النصف الداخلى من المحل . ثم يراجعون الأشياء المشتراة على الكشف المدونة به قبل التسليم .

معظم المشترين تجار صغار وأصحاب محلات بالقرى المجاورة أو بالمدينة نفسها يشترون سلعهم بسعر الجملة . . ويبيعونها للمشترين بالقطاعى . من حين لآخر يدق جرس التليفون الأسود العتيق فيرفع أبى السماعة ، ويجيب المتكلم وينهمك معه فى محادثة تجارية خطيرة ، ومن آن إلى آن يقترب أحد المشترين أو المارة من جهاز التليفون الرأسى الكبير، ويقول لأبى : عن إذنك التليفون ، فيقول له وهو منهمك فى الكتابة : تفضل ! فيرفع الرجل السماعة ويُجرى مكالمة طويلة أو قصيرة ثم ينهيها شاكرًا وينصرف إلى حال سبيله ، فالمكالمات مجانية ، ومن « العار » قبول ثمن المكالمة البسيط من أحد ، وإلا عد ذلك عيبًا لا يليق بمن يفعله ! وقد يفاجئ المحل زائر يرتدى القبعة وتبدو سحنته أجنبية فيبادر بكلمة التحية باللغة اليونانية : « يا سو » ! ويجيبه أبى مبتسمًا بنفس الكلمة : « يا سو يا خواجة فلان » ! ثم أُخلى له مقعدى المجاور للمكتب وأنتقل لمقعد آخر، فيجلس ويفتح حقيبته ويخرج أوراقًا منها ، وينهمك مع أبى فى حديث قصير . . ينتهى دائمًا بأن يتسلم الرجل الأجنبى مبلغًا من المال يقوم بعَدِّه باهتمام ثم يضعه فى حقيبته بحرص ، وينصرف مودعًا ، وأعرف من طول التجربة أن الخواجة مندوب لإحدى الشركات التجارية الكبرى بالإسكندرية ، وأنه قد تلقى خلال زيارته القصيرة طلبًا بإرسال كمية جديدة من البضائع ، وتسلم قيمة شحنة سابقة . . أمثاله يجيئون بالقطار من الإسكندرية فى يوم معلوم من كل أسبوع إلى

المدينة الصغيرة ، فيطوفون على تجارها يُحصِّلون الفواتير السابقة ، ويتلقون طلبات الشراء الجديدة ، ويعودون بقطار العصر إلى مدينتهم .

ومن طول العِشرة تنشأ بينى وبين بعضهم صداقات ، فأحفظ مواعيد مجيئهم ، وأتطلع بسرور خفى إلى مداعباتهم اللطيفة والاستمتاع بخفة ظل بعضهم ، ويومًا بعد يوم يترسخ لدىَّ الإحساس بجلال أبى «وخطورة شأنه» . . وإلا فلماذا يتودد إليه هؤلاء الخواجات ذوو الوجوه البيضاء المحمرة ؟! ولماذا يعامله التجار الصغار من المشترين والعمال بهذا الاحترام ؟! غير أن هذا « الجلال » يتعرض ذات يوم إلى هزة عنيفة ، إذ أرى أبى ذات مرة وأنا جالس إلى جواره ينتفض قائمًا من وراء مكتبه ويتجه إلى باب المحل مهرولاً ليستقبل شيخًا لمحه قادمًا عن بعد ، فنزل عن عتبة المحل إلى الرصيف ليكون فى استقباله . . وأراه ينحنى فى «خنوع» انزعجت له كثيرًا على يد الرجل ويقبلها فى الطريق العام ، والآخر يمسح بيده على رأسه ، ووجهه البدرى الأبيض يطفح بالبشر ، ولحيته البيضاء تحيط وجهه بما يشبه الهالة من الضياء . . ثم يدخل الشيخ إلى المكتب ، وأنا ما زلت جالسًا إلى مقعدى أتأمل الموقف مندهشًا ومستنكرًا ، ويقول لى أبى فى اهتمام : « سلِّم على سِيْدَك » ! ويمد الرجل إلىَّ يده باسمًا ، فأمد إليه يدى فى تثاقل وأصافحه بغير انحناء ولا تقبيل ، فلا يتوقف الرجلان أمام سوء أدبى كثيرًا . . وإنما ينشغلان عنه بتبادل التحايا الحارة والابتسامات الصافية والحديث

العذب وشرب القهوة ، ثم تنتهى زيارة الشيخ الخطير فيصاحبه أبى حتى الرصيف ، ويكرر ـ للأسف ـ « مهزلة » الانحناء على يده مقبلاً ومودعًا !

وينصرف الآخر شاكرًا ، ويرجع أبى إلى مكتبه منتشيًا بالانفعال ، فلا يلومنى لأنى لم أقبّل يد الرجـل التى انحنى عليها مرتين، وإنما يدع لتجربة الأيام أن تعلمنى ما لا أعلم . . وأعرف فيما بعد أن الشيخ هو رأس العائلة ، وعمه التاجر الكبير الذى تولى رعايته من بعد أبيه ، ويقوم منه مقام الأب . . وأدرك مع الزمن كم كنت جاهلاً وكنودا حين لم أسابق أبى إلى يده لتقبيلها والانحناء عليها ، لكن الإشارة لا تضيع بالرغم من ذلك فى الظلمات ، وإنما تتسرب إلى الوجدان بغير أن أدرى وتترسخ فيه ، وتلقننى أول الدروس فى احترام الكبار والعرفان لهم .

أيـام السـعـادة

كانت أيـامَ الطفـولة اللاهيـة . . والقلوب الخـاليـة . . والآمـال الصغيـرة . . متـع الحياة تتمثل فى إشباع الاحتياجات الغريزية للصغار مـن مأكل ومشـرب وملعب وفراش . . النوم بعمق شديد يتحسر عليه الكبـار الآن ويتمنـون لمحـة منـه . . والصحـو الكاره لمفـارقـة الفـراش بعـد طول مقاومة واستجداء للأهـل أن يترفقوا بنا ويدعونا لحالنا ولو انقضى اليـوم كله فى النـوم . . الخوف من الظلام والأشباح والعفـاريت التى نسمع حكاياتها بقلب خافـق ووجـل شديد بغيـر أن نراها أو يصادفها أحدنا .

غلمان الشارع يبدو لهم وكأن غاية الحياة الكبـرى ومثلها الأعلى إنما يتحققان باللهو بتفانٍ وإخلاص شديد طـوال اليوم من الصباح حتى المساء . ننقطـع ـ نحـن أطفـال المدارس ـ عـن ألعابهم مرغمين فتـرة الصباح خلال الدراسة . . ونشاركهـم ألعابهم بعـد الخروج مـن سجن المدرسة متحسرين على الوقت الثمين الذى « ضاع » داخل أسوارها !

رفقاء الطفولة يبدأون يومهم غالبًا بمباراة « مفتوحة » فى كرة القدم تبدأ من الصباح ، ولا تنتهى إلا مع قدوم الليل أو حدوث طارىء يطلق صفارة نهايتها على غير رغبة منهم . تبدأ المباراة كل يوم بتحَدٍ مألوف بين اثنين من زعماء الشارع أيهما سوف يهزم الآخر فى مباراة الكرة ، ويقبل الآخر التحدى ثم يبدأ كل منهما فى اختيار أعضاء فريقه ، فيقف أحدهما فى جانب ، ويقف الخصم فى الجانب الآخر ، ويبدأ كل منهما فى اختيار المحظوظين الذين سيشاركونه متعة اللعب والمنافسة ، ونقف نحن بين الزعيمين يراودنا الأمل الحسير فى أن يقع اختيار أحدهما علينا ، فيخيب الأمل فى معظم الأحيان ، وتجود الأيام بالبهجة المرتقبة فى مرات شحيحة . . يختار رئيس كل فريق زملاءه فيهرولون ناحيته فخورين بالاختيار ومبتهجين به . . ويخطئنا نحن فى أغلب الأحوال اختيار الزعيمين . . فنتجرع غصة الحسرة . . ونرجع لمقاعد المتفرجين كالبضاعة البائرة التى لم يشترها أحد .

انتهى التشكيل ، لكن اللعب لم يبدأ بعد بسبب المشكلة الأزلية والجدل العقيم حولها . . فأكثر اللاعبين ـ وفى مقدمتهم الزعيمان ـ من أبناء البسطاء الذين يسيرون فى الأرض حفاة ، وقد اكتسبت أقدامهم العارية صلابة أشد من صلابة بعض الأحذية ، لكنهم عند كل مباراة يطالبون القلة من معتادى ارتداء الأحذية بخلعها ، خوفًا على أقدامهم من الإصابة ، ويثور الجدل الشديد حول هذه القضية ، ويرفض أهل

الأحذية خلعها . . وحجتهم فى ذلك أنهم لم يتعودوا السير حفاة . . وأن أقدام اللاعبين العارية لا تقل صلابة عن أحذيتهم . ويتمسك أهل الحفاء بمطلبهم إلى ما لا نهاية منوّهين بما تحمله كعوب الأحذية من مسامير حادة يمكن أن تؤذى جلودهم ، ويطول الجدل بين الفريقين ، إلى أن يحسمه العقلاء بالتوصل لحل وسط يرتضيه الفريقان ، فيجبر رئيس كل فريق بعض لاعبيه من أهل الأحذية ممن عرفوا باللعب العنيف على خلع أحذيتهم ، ويعفى من ذلك من يشهد له الخصوم باللعب النظيف البعيد عن العنف ، وتنتهى الأزمة بسلام ويبدأ اللعب ، فأما المرمى فقطعتان من الحجر تحتسب هدفًا الكرة التى تعبر المسافة بينهما .

وأما الجدل الآخر داخل كل فريق فحول مَنْ مِنْ بينهم الذى يقف حارسًا للمرمى ، والجميع يريدون أن يشاركوا فى « المحاورة » والهجوم ونيل قصب السبق فى إحراز الأهداف ، ولا يريد أحدهم أن يقف فى المرمى فلا يناله من شرف اللعب سوى محاولة صد الكرات وإبعادها عن مرماه . . فضلاً عما يتعرض له دائمًا من غضب رئيس الفريق كلما دخل فيه هدف . . وربما اشتط فى لومه إذا تكررت الأهداف فينهره أو يسبه سبابًا فاحشًا . . أو يصفعه عند الضرورة ويحمِّله عار التسبب فى هزيمة فريقه .

وينتهى الأمر غالبًا باستضعاف أقل اللاعبين كفاءة وإرغامه على الوقوف فى المرمى بعد التلويح له باستبداله بأحد الواقفين على جانبى

الشارع ممّن يتلهفون على المشاركة فى اللعب ، وتنتهى مشكلة حراسة المرمى، ويتهيأ اللاعبون للعب فيرفع كل منهم ذيل جلبابه ويربطه حول وسطه ليتيح لساقيه الرفيعتين حرية الحركة ، أما من يرتدون البنطلون القصير مثلنا أو البيجامات ، فلا مشكلة لديهم فى ذلك ، لكنهم لا يختارون غالبًا للانضمام للفريق إلا لأسباب قهرية أو طارئة .

وأما الكرة فهى جورب قديم يتبرع به غالبًا أحد غير المحظوظين بالاختيار معظم الأحيان ، وتم حشوه بالقطن وخياطته على شكل دائرى . . وحين ظهرت الكرات المصنوعة من المطاط واجه الرفاق مشكلة « ارتفاع » ثمنها الذى لم يكن يقل عن عشرة قروش ، ثم حلت المشكلة ذات يوم بأن تطوعتُ لشراء كرة وقدمتها لزعماء الشارع ، وتصورت لغفلتى أن ملكيتى لها سوف ترفع من أسهمى لديهم عند الاختيار، فإذا بالزعماء يثبتون « موضوعية » مبكرة فى التفكير ويفصلون بين ملكيتى للكرة ، وبين أحقيتى فى اللعب ضمن صفوف فريقهم . . فلا يتاح لى اللعب معهم إلا وفقًا لقواعد الاختيار المقررة من قبل وهى الأكفأ . . فالأقل كفاءة ، فالأقل . . وهكذا إلى أن يصل الترتيب إلىّ فى ذيل القائمة !

وأما التحكيم خلال سير المباراة فعلى المشاع ، ويشارك فيه رئيسا الفريقين واللاعبون أنفسهم والمتفرجون ، ويتوقف سريان أحكامه على قبول الخصم بها ، فإذا اختلفوا حول حكم من أحكام اللعب ـ وكثيرًا

ما كانوا يختلفون ـ فمردّه إلى شهادة الشهود من أمثالنا . . وكل رئيس يعرض وجهة نظره ويستحلف الشهود أن يحكموا بالعدل بينهما فيحكم كل منا بما يراه ، وتثبت التجربة لنا فى وقت مبكر ثقل أمانة القضاء والحكم بالعدل بين الآخرين . . فمن يحكم منا بما يراه العدل والحق يناله من سخط الطرف الآخر عليه الكثير . . وليس بمستبعد أن يطوله رذاذ الاتهام بالممالأة وقلة الذمة ، أملاً فى أن يرضى عنه من حكم له ويضمه لفريقه بعد حين ، ومن يمتنع عن الحكم إشفاقًا على نفسه من الغضب اتهم بالجبن وانعدام الشجاعة الأدبية لنفس الغرض . وفى كل الأحوال فسوف يتوقف اللعب بعض الوقت ثم تحل الأزمة بشكل أو بآخر وتستأنف المباراة من جديد .

وخلال سير اللعب ، قد يستدعى أحد اللاعبين من جانب أهله فينسحب من الملعب كارهًا وراغمًا . . وقد يلمح أحدهم أباه مقبلاً من بعيد فيسرع بالفرار قبل أن يضبطه متلبسًا بجريمة اللعب طول النهار بلا فائدة ولا جدوى ، فتشرئب أعناقنا نحن من جانب المشاهدين ونتطلع إلى رئيس الفريق الذى خسر أحد لاعبيه نترقب الإشارة السحرية منه ، فيشير إلى أحدنا ، وينزل سعيدًا إلى الملعب ومغبوطًا من الآخرين، ويفاجأ غالبًا بأن حارس المرمى الذى أجبر على الوقوف فيه فى بداية المباراة على غير إرادته . . قد احتج على رئيسه مطالبًا بفرصته العادلة فى «المحاورة» بعد طول الوقوف فى هذا المركز غير المرموق ، ويرضى عنه

رئيس الفريق أخيرًا ويشير له بالمشاركة فى الهجوم ، فلا يجد الوافد الجديد مكانًا له إلا بين أحجار المرمى ، حيث الخوف كل لحظة من العار . . أو سباب الرئيس ولومه !

وأما وقت اللعب ، فليس محددًا بزمن معين . . وإنما يتواصل إلى أن ينسحب أحد الفريقين لأسباب قهرية . . والمباراة « مفتوحة » ينسحب منهما كل من يستدعيه أهله فيحل محله آخر من البدلاء المنتظرين ، فلا يصمد للعب من البداية حتى النهاية غالبًا سوى رئيسى الفريقين و « النجباء » من أعضائه ممن لا يبحث عنهم ذووهم !

والأصل هو أن تستمر المباراة إلى أن يحل الظلام وتتعذر رؤية الكرة والدفاع عن المرمى . . والاستثناء الذى يتكرر فى كثير من الأحيان هو أن تنتهى المبارة لأسباب خارجية طارئة . . كأن تضيق بعض سيدات الشارع بعصيان الأبناء لندائهن عليهم للانسحاب من الفريق والعودة للبيت ، فلا تجد إحداهن حلاً لذلك سوى إفساد المباراة عليه وعلى زملائه بإلقاء سيل عارم من الماء من النافذة على ساحة اللعب فيغمر رءوس اللاعبين وملابسهم ويفرون من المكان ضاحكين أو ساخطين ، ويتفرق الصغار بعض الوقت ويلبى نداء الأهل مَن تجاهله طويلاً استجابة لنداء اللعب ، ثم يحل الظلام ، ويتجمع الرفاق من جديد بعد فترة الراحة الإجبارية لبدء ألعاب المساء . . وأفضلها عندهم « نطة الإنجليز » . . وهى لعبة مشابهة للعبة حصان القفز فى الجمباز مع

اختلاف بسيط هو أن « الظهر » الذى يقفز اللاعبون من فوقه . . هو ظهر « حصان بشرى » من الصغار . .

أما بقية ألعاب المساء فكثيرة وجميلة ، من بينها « الاستغماية » . . والمراهنات المختلفة والتحديات ورواية الحكايات المثيرة وقصص مغامرات رعاة البقر التى تعرض على حلقات مسلسلة فى دار العرض الوحيدة بالمدينة ، وهى ظاهرة انفرد بها جيلنا عن الأجيال الحالية ، حيث اختفت الآن هذه الحلقات المسلسلة من دور السينما وكانت تعرض دائمًـا قبل الفيلم الرئيسى وتستثير خيالنا بمغامراتها العجيبة وشجاعة بطلها وقدرته على مواجهة الخصوم والفرار من مطارديه الذين يلاحقونه على ظهور الخيل المسرعة ، يحاولون قتله بالرصاص وهو منطلق كالسهم فوق حصانه أمامهم ، أو يحاولون اصطياده بالحبل الذى يتطاير فى الهواء وفى مقدمته « أنشوطة » ، إذا أطبقت عليه وسحبها المطاردون ضاع البطل وسقط أسيرًا فى أيدى من لا يرحمونه ، وكان العامة يسمون هذا البطل دائمًـا باسم « الشجيع » ؛ وهو تخريج لغوى مبتكر من كلمة الشجاعة . . كما كانت كل حلقة من هذه الحلقات وأشهرها فى جيلنا هى « مغامرات زورو » تنتهى بموقف صعب يتعرض فيه « الشجيع » لخطر داهم وتتوقف الحلقة دون أن تشفى غليلنا وتطمئننا على مصيره ، ونتمزق نحن شوقًا لمعرفة مصيره ، ونعد الأيام الباقية على موعد الذهاب إلى السينما فى الخميس التالى لنعرف ما جرى له ، ونهرول راجعين

للصحاب الذين لم يدخلوا السينما بالبشرى السعيدة بنجاة البطل من ذلك المأزق الخطير الذى تعرض له ، وبالخوف أيضًا من المأزق الأخطر الذى تعرض له فى نهاية الحلقة الجديدة ، إلى أن اكتسبنا بعض الخبرة بعالم السينما وأصبح لدينا بعض اليقين بأنه سينجو من الخطر فى الحلقة الجديدة كما نجا من السابقة ، وأن تعرض البطل للخطر مع نهاية كل حلقة هو أمر مقصود ـ فى حد ذاته ـ بهدف الإثارة والتشويق ، فأصبحنا نصف فى أحاديثنا أى موقف طارئ يواجهه أحدنا ، بأنه « قفلة حلقة » .. وسوف يجد نهايته المرجوه بعد حين ، كما علمتنا الحلقات المسلسلة !

وفى مثل هذه الحكايات والروايات كان الوقت المسحور يمضى بغير أن نشعر به ، فلا يكدر صفوه إلا إلحاح الأهل علينا بالعودة إلى البيت ، وإلا صوت ذلك الرجل من البسطاء الذى كان له ابنان من رفاق الشلة ، ويقيم بالدور الأول من بيت قديم من بيوت الشارع ، فيخرج إلى النافذة فى التاسعة من مساء كل يوم ، وكأنما قد ضبط توقيته على « ساعة سويسرية » لا تؤخر ولا تقدم ، ثم يهتف مناديًا ابنه الأكبر بجملة واحدة لا تتغير كلماتها أبدًا وبصوت « أخنف » يثير السخرية قائلاً : «واد صلاح .. إنده جمال وتعال تعشَّ ! » .

فيكتئب الابن الأكبر ويفارقنا ساحبًا شقيقه معه وهو كاره .. ومشفقًا على نفسه من ركلات أبيه وصفعاته القاسية إن تأخر عن تلبية النداء .

فتفقد الجلسة بعض بهجتها ، ويتكرر المشهد بتفاصيله نفسها كل ليلة . . إلى أن يفتح الرجل نافذة بيته ذات مساء فى الموعد المقدور . . ويهم بأن يهتف بالنداء المعهود فيفاجأ قبل أن ينطق بكلمة بكل صغار الشارع يهتفـون مقلدين صـوته الأخنـف ونغمتـه قائلين فى نشيد جماعى عـال :

« واد صلاح . . إنده جمال وتعال تعش ! » .

وتنفجر الضحكات الصافية من القلوب الخالية . . ويشاركنا الضحك بعض أهل الشارع من الكبار . . ويصبح النداء الأخنف المنغوم نشيدًا جماعيًّا من أناشيدنا نعابث به الصغيرين ونروِّح به عن القلوب كل حين .

وأكتشف أنا لدهشتى فى هذه السن الصغيرة أن لدى الأطفال جرأة نفسية عجيبة على تقليد الكبار ومعابثتهم والسخرية منهم فى بعض الأحيان، كما أكتشف أيضًا حقيقة أخرى من حقائق الحياة هى أن نظام الحياة اليومية عند البسطاء كان يختلف فى جيلنا عن نظامها عند أوساط الناس، وأنهم يتناولون وجبة طعامهم الأساسية الساخنة فى العشاء ولا يحفلون بطعام الغداء ولا يجتمعون حوله ، وقد يقضى أبناؤهم النهار كله فى اللعب فلا يتبلّغون بغير الخبز والماء إذا اشتد بهم الجوع ، فإذا حلّ المساء بدأت أمهاتهم فى طهى طعام العشاء وفاحت روائحه فى الشارع

. . ثم يرجع رب الأسرة للبيت بعد يوم العمل الطويل ويجتمع الأبناء حول المائدة .

أما نحن فقد كانت وجبتنا الأساسية هى طعام الغداء، وكان عشاؤنا خفيفًا كطعام الإفطار .

ثم تمضى الأعوام فى طريقها المعهود . . وأعرف فيما أعرف من عادات الشعوب أن النظام الغذائى الذى كان البسطاء يتبعونه فى حياتهم فى جيلنا هو النظام نفسه الذى يتبعه الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون فى حياتهم الآن ، حيث وجبة الطعام الأساسية الساخنة هى وجبة العشاء بعد انتهاء يوم العمل ، وحيث لا يحفلون كثيرًا بطعام الغداء ويتناولون فيه الوجبات السريعة . . أو « الساندويتش » خلال مهلة الغداء القصيرة بين فترتى العمل . .

فأضيف هذه المعلومة الجديدة إلى رصيدى من خبرة الحياة . . وأرجع بها إلى أصولها الأولى فى شارعنا القديم ، ويتجدد الحنين إليه . . وإلى ذكرياته الجميلة . . وأيامه السعيدة !

الاحتفـــال

فى البيت القديم يسرى تيار من البهجة لا أعرف أسبابه . . ومنذ الأصيل تتوافد عليه سيدات العائلة فتستقبلهم أمى وأختى الكبرى بالقبلات والأحضان ، ثم لا تمضى دقائق حتى تعلو الضحكات وتعم البهجة المكان . . وفى المطبخ نشاط محموم لإعداد الشاى والقرفة والشربات، أما قمة البهجة بالنسبة لنا نحن الأطفال ففى هذه الأوانى الضخمة التى يجرى فيها إعداد كميات كبيرة من المهلبية والألماظية والأرز باللبن ، والجميع يشاركن فى العمل . . وهن يتضاحكن ويتبادلن الأحاديث البهيجة . . ثم يجتمع شملهن فى الصالة الواسعة ويستمتعن بالحلوى والشراب ، ثم تغنى ذاتُ صوت حَسَن نوعًا غريبًا من الغناء ، يبدو لى كالحدَاء الذى يحدو به البدو جِمـالَهم فى الصحراء . . وألحظ للدهشة أنه يثير فى نفسى الشجن أكثر مما يثير فيها الابتهاج . . ويعجز عقلى الصغير عن فهم معنى اسم هذا النوع من الغناء الذى سمعته من أمى أكثر من مرة من قبل ولم أستوعبه ، وهو « التحانين » ، لكنى أرى

أثره واضحًا فى عيون الجالسات وهى تترقرق بالدمع دون أن يفارق الوجوه الانشراح . . وأعجب لهذا الغناء الحزين الذى يستدر الدمع من العين . . كيف يكون وسيلة للاحتفال بمناسبة بهيجة ، أو كيف تنفعل به إحدى الحاضرات فتطلق « زغرودة » طويلة تتجاوب معها الأخريات بالزغاريد والضحكات والدعوات الصالحات ، والدمع ما زال يترقرق فى العيون ؟! . . وتدور أكواب الشربات والشاى والقرفة ، وأطباق المهلبية والألماظية من جديد على الحاضرات ، ويمضى الوقت فى بهجة خالصة بالرغم مما يحيط بالأجواء من ظلال الدموع ، ثم نسمع طرقات على الباب الخارجى للبيت ، فيعم السكون فجأة أرجاء المكان وتختفى الضحكات والصيحات ، ويدخل الدور الأرضى من البيت كوكبة من الرجال يتقدمهم رأس العائلة الشيخ الجليل وبينهم أبى والأعمام وأبناء العم وبقية رجال الأسرة .

ويجتمع الجميع فى صالون الدور الأرضى الذى نسميه فى لغتنا «غرفة الجلوس»، ويشهد السلم الصاعد إلى الدور العلوى نشاطًا كبيرًا فى الصعود والهبوط بين الدورين بأكواب الشاى والقرفة وأطباق الحلوى ، ونتمتع نحن الأطفال بحرية التنقل بين مجلس النساء فى الدور العلوى ـ الذى ران عليه الهدوء والتحفظ ـ وبين مجلس الرجال الذين يملأون مقاعد الصالون ويتبادلون الابتسامات والأحاديث الوقورة ، وتتجه أنظارهم دائمًا إلى قطب المجلس الذى يتصدر المكان ويبدو أنه مصدر

الإشعاع فيه . . وبعد احتساء الشاى والقرفة والاستمتاع بأكل المهلبية والأرز باللبن ، يشهد المجلس فجأة نشاطًا جديدًا . . إذ ينهض الشيخ الجليل واقفًا فينتفض الآخرون واقفين ويصنعون ما يشبه الدائرة . . ثم يبدأ الشيخ الجليل فى الترديد بصوت خافت ويُرجِّع الآخرون ترديده بصوت عال . . ويعود الشجن الغامض إلى التسلل إلى نفسى بغير أن أدرى له سببًا . . وتلتقط الأذن عبارات منظومة موحية تتردد فيها كلمات : الله . . أحد . . حى . . أكبر . غفار . ويستمر الترديد . . ثم تتشابك الأصوات فى النهاية فى ترديد جماعى شجى يوحى بقرب الختام ، وينتهى بعبارة منغمة ذات إيحاء مميز : « . . وصلى الله على محمد . . صلى الله عليه وسلم » .

ويرجع الرجال إلى مقاعدهم منتشين . . وتهبط « صوانى » الشاى والقرفة من جديد إلى الدور الأرضى ، ويمضى الوقت فى سَمَـر لا يعى الفهمُ أكثره ! ثم يقف الشيخ الجليل ويقف معه الرجال مرة أخرى وتتكرر العبارات الموحية ، والترديد الشجى ، والختام المبهج بنفس العبارة الجميلة . .

وتتمنى النفس أن يطول الوقت بالمجلس إلى ما لا نهاية ، لكن قانون الأشياء يفرض نفسه فى النهاية . . ولا تلبث السيدات أن يبدأن فى الانصراف من الدور العلوى . . ولا يلبث الرجال أن يلحقوا بهن بعد قليل . . ويخلو البيت أخيرًا من زواره ، وتجتمع الأسرة فى الدور العلوى ،

فأرى بقايا الاحتفال الغامض فى كل مكان . . وتمضى السنوات قبل أن أعرف أن أسرتى كانت فى تلك الليلة ومثيلاتها من الليالى المشابهة تقيم احتفالها الخاص بذكرى المولد النبوى الشريف . . وأن غناء « التحانين » الذى كانت تردده سيدات الأسرة فيثير الشجن الغامض فى نفسى ويستدر الدموع ، لم يكن إلا ترجمة عامية لما يمكن أن يسمى بغناء «الحنين» إلى زيارة بيت الله الحرام . . وقبر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . . ويتلقى الوجدان فى وقت مبكر واحدة من أهم الإشارات الدينية الغامضة التى تستقر فيه وتسهم فى تكوينه وتحديد مجراه فيما بعد .

التواصُل عن بُعد

فى نضارة الزهور حين تتفتح لأول مرة ، كان « الحب » الذى غزا قلب الفتى الغض والفتاة الصغيرة .

كان كل منهما يضطرب بمشاعر جديدة وغريبة .

وبعد المناوشات المبدئية استقر الأمر بينهما وتأججت العواطف . . وأصبحت وسيلة التواصل بينهما هى اللقاءات الخاطفة وتبادل الرسائل القصيرة، فينتهز الفتى فرصة خلو الطريق فى الصباح الباكر من المارة ثم يقترب من فتاته وهى فى طريقها للمدرسة ويسلمها على عجل أو يتسلم منها ورقة مطوية ، ويرجع مبهور الأنفاس منفعلاً ، ويقرأ كلمات الرسالة، ويتشمم الورقة المطوية أكثر من مرة . . ويلاحق فتاته بنظراته الوالهة كلما أتيحت له الفرصة .

وبعد فترة من تبادل الرسائل واللقاءات الخاطفة التى لا تستغرق دقائق أصبح نظام حياته أن يخرج من مدرسته فيترقب خروج فتاته من

مدرستها، ويسعد برؤيتها و « ملاحظتها » خلال الطريق من المدرسة إلى البيت . . ، وبعد فترة أخرى اصطنع المحبان لنفسيهما وسيلة أخرى أكثر فعالية وتأثيرًا للتواصل ، فلقد اكتشف الفتى خلال وقوفه فى مكتبة بشارع المدينة الرئيسى أن فى محل الترزى المقابل له مرآة كبيرة تتيح له أن يرى فيها مدخل محل الخردوات المجاور للمكتبة . . فتعجب كيف لم ينتبه من قبل لذلك ، وفتاته كثيرًا ما تتردد على هذا المحل وتقف فى مدخله ؛ فيمر هو عليه ذهابًا و إيابًا مسترقًا النظر إليها إلى أن ترجع بيتها فى سلام . .

إنه يستطيع إذا وقف أمام المكتبة منتحلاً أى سبب ووقفت هى فى مدخل محل الخردوات ، أن يراها فى مرآة محل الترزى الكبيرة وأن يتبادل معها الإشارات فى سرية ودون أن يخطر فى بال أحد أنه يقصدها لأنه «لا يراها» و « لا تراه » وهناك حائل من فترينة محل الخردوات يحجب رؤيتها عنـه .

فكتب إليها بالفكرة . . وطلب منها الوقوف كل يوم بمحل الخردوات لمدة ربع ساعة على الأقل فى طريق عودتها من المدرسة لكى ينعم بالتطلع إليها خلال المرآة . .

ورحبت هى بالفكرة ، ومن ذلك الحين يصبح برنامجها اليومى أن ترجع من المدرسة حاملة كتبها ؛ فتتوقف فى محل الخردوات بعض الوقت

وقد تشترى شيئًا وقد لا تفعل ، ثم تقف بمدخله كأنما تتطلع إلى المارة وتتسلى بمراقبة حركة الشارع ، فترى فتاها فى المرآة ويراها الفتى ويتبادلان الابتسامات والإشارات وكلمات العيون . ويرجع كل منهما إلى بيته سعيدًا مشحونًا بالمشاعر والأحاسيس . .

وتمضى الأيام واللقاء عبر المرآة مستمر بين الحبيبين ، ثم يلفت «منظرهما» ذات يوم نظر زميل من زملاء الفتى بالمدرسة ، ويلحظ العلاقة غير المرئية بين موقف الاثنين ، فيقترب من الفتى ويكتشف السر ويسعد باكتشافه له ، فهو محب هو الآخر ، ويكتفى بملاحقة فتاته فى الطريق بين مدرستها وبيتها ، وهذه الوسيلة الجديدة سوف تتيح له التواصل معها عن بعد إذا توصل مع الفتى إلى ترتيب ملائم ، ويرحب الفتى بالمحب الجديد دون تحفظ . والحب يقرب بين المحبين ، وتنضم فتاة الوافد الجديد إلى فتاة القلب فى موقفها اليومى بمحل الخردوات وينضم فتاها إلى موقفه اليومى أمام المكتبة ، ويسعد أصحاب المحل والمكتبة بهذا « الإقبال » الجديد عليهما . . وتؤدى لغة العيون والابتسامات دورها الخالد فى تعميق التواصل !

وتجرى الأيام جريها المعهود وينهى فتى المرآة دراسته بالمدرسة ويلتحق بالجامعة ، وتنتقل فتاته إلى مدينة أخرى . . وتنقطع الصلات بينهما بعد حين . . ثم ينشغل كل منهما بآماله وأحلامه ، ويتخذ لنفسه طريقًا آخر فى الحياة ، ويرجع الفتى القديم بعد سنوات عديدة إلى المدينة ذات يوم

فيرى رفيق « الوصال عن بعد » وقد أصبح رجلاً ناضجًا ، واقفًا فى نفس الموعد تقريبًا أمام نفس المكتبة فى نفس موقفه السابق حين كان القلب غضًّا والآمال بكرًا ، ويبتهج كل منهما برؤية صاحبه بعد فراق السنين ، ويسأل العائد للمدينة رفيقه القديم عن أحواله . . فيجيبه بأنه قد تزوج قبل سنوات من فتاته تلميذة المدرسة الصغيرة التى كان يتبادل معها الإشارات فى نفس هذا الموقف ، وأنجب منها طفلين ويعيش سعيدًا معها وبها . . لكنه للأسف قد اعتاد منذ تلك السنين الغابرة عادة تمكنت منه وأصبحت كالآفة ، هى أن يتوقف كل يوم تقريبًا ـ صيفًا وشتاء ـ بعد خروجه من عمله أمام هذه المكتبة . ويمضى بعض الوقت يتحدث مع صاحبها الذى أصبح من أقدم أصدقائه . . ويتطلع إلى المارة . . أو تشرد عينه لا إراديًّا إلى المرآة المقابلة فيرى مدخل محل الخردوات المجاور منعكسًا فيها !

شىء من الألم

فى مقهى الأعيان يجتمع كل مساء الصفوة وأهل الحل والعقد بالمدينة . .

ضُباط مركز الشرطة . . مدرسو المدرستين الثانوية والابتدائية . . المحامون . . مهندس البلدية والموظفون . . ناظر الثانوية المهاب . . وناظر الابتدائية المحترم ، أعيان الريف الذين يزورون المدينة لقضاء مصالحهم . . التجار . . إلخ .

يلفت الناظر الجديد أنظارنا بشيئين : بدانته وطيبته الظاهرة من ناحية ، وجمال زوجته الصاعق وشبابها بالمقارنة به من ناحية أخرى . . ، نراه جالسًا فى المقهى فى دعة وهدوء . . ونرى زوجته فى شرفة المسكن القريب تفوح عطرًا ونضارة وجمالاً . . يتساءل بعضنا بالفضول المؤدى للمهالك : ترى كم يبلغ فارق العمر بين الزوجين ؟ وكيف تزوجت هذه الغادة الحسناء من هذا الكهل البدين مكور الوجه والبطن ؟! فلا تظفر

بإجابة شافية ، غير أن الأيام سرعان ما تجيب عن تساؤلاتنا على نحو مختلف . . إذ نذهب إلى المدرسة ذات يوم فلا نجد الناظر واقفًا فى موقفه التقليدى بالفناء ، وتتطاير إلينا الأخبار أنه لن يرجع للمدرسة مرة أخرى، ونسأل أهل العلم عن سر هذا التطور المفاجىء ولم تجر العادة على نقل الناظر خلال السنة الدراسية . . ، فتجيئنا الإجابات غامضة . . متحفظة لا تشفى الغليل . . ويتحرج البعض الآخر من الإجابة فيلومنا على مجرد السؤال ، ويطلب منا أن ندع « الناس » لشئونها . .

ويزيد التحفظ والتحرج من الغموض المحيط .

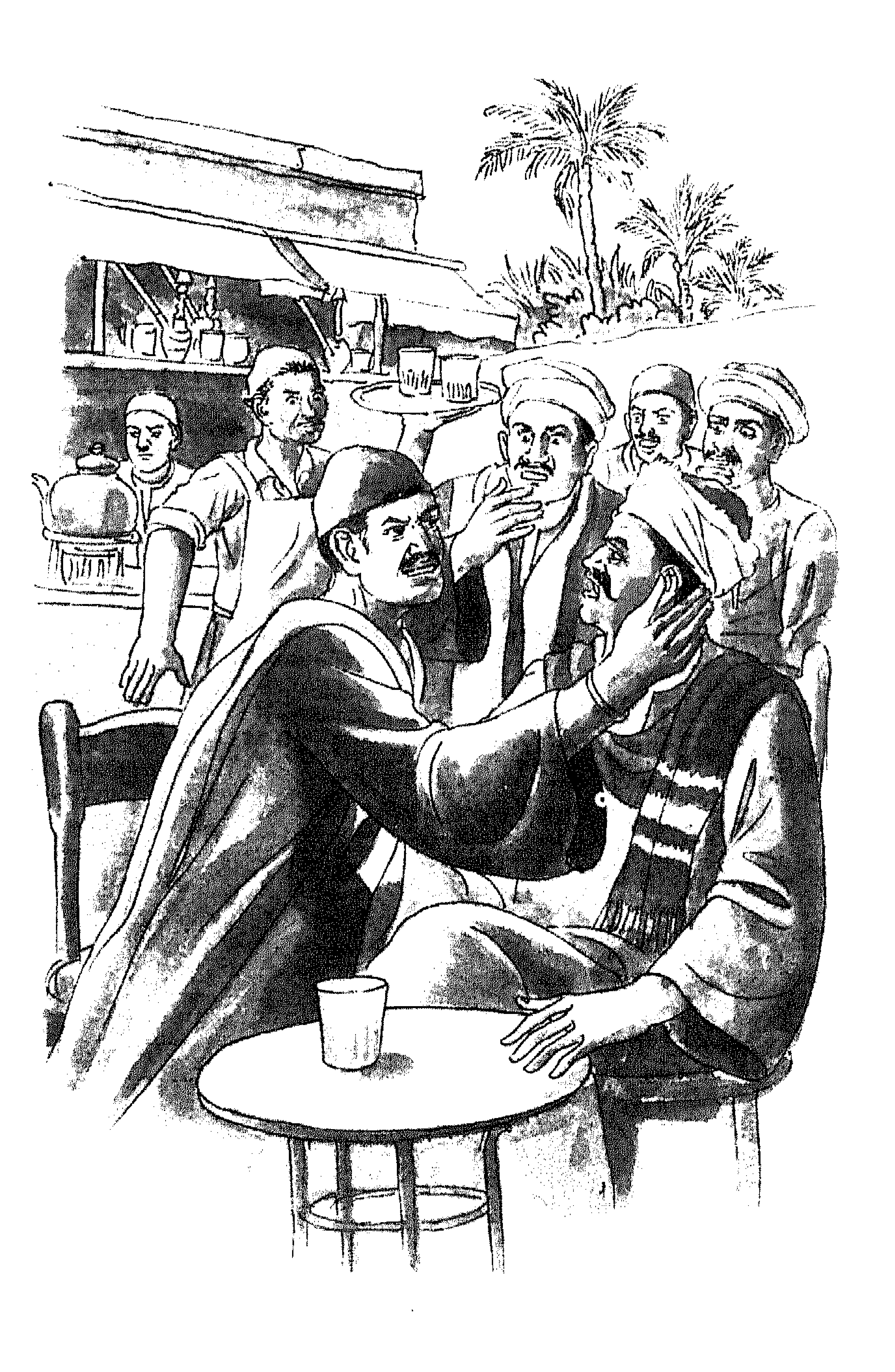
ويرجع إلينا أحدنا بما يثير ذهولنا وإشفاقنا وانزعاجنا فى نفس الوقت. . فيقول نقلاً عن أخيه الشاب الذى يقتحم عرين الأعيان ويجالسهم مجالسة الند للند فى مقهاهم : إن الناظر قد طلب نقله فجأة فى منتصف العام الدراسى بعد أن تفجرت فضيحة لا يستطيع معها استمرار البقاء فى المدينة . . فلقد رجع ذات مساء قبل موعد عودته الطبيعى من المقهى إلى البيت ففوجىء بوقوف سيارة أمام البيت الذى يقيم فيه . . يجلس فيها ٤ شبان ، وما أن اقترب من المكان حتى أحاطوا بـه ، فعرف فيهم موظفين ومحاميًا وتاجرًا من رواد المقهى . . وحيوه وتبادلوا معه حديثًا مضطربًا يحاولون به تأخير عودته إلى البيت بكل وسيلة .

وشعر هو بذلك فحاول مغادرتهم إلى البيت ؛ إلا أن أحدهم كاد يتعامل معه بعنف ليمنعه من ذلك . . فظل الرجل واقفًا بينهم فى حيرة إلى أن لمح مهندسًا شابًا يغادر البيت الذى يقيم فى إحدى شققه مضطربًا، وعندئذ فقط أطلق الشبان الأربعة سراحه . . ورفع هو بصره إلى أعلى ورأى زوجته الشابة فى الشرفة ترقب الموقف فى هدوء . . فأدرك كل شىء بغير كلام .

وبعد قليل من دخوله مسكنه سمع الجيران أصداء المواجهة الصاخبة بين الزوج الكهل وزوجته الشابة . .

وصدمت أسماعهم كلماتها المتحدية . . المكابرة !

فلم يملك الرجل إلا أن يطلقها فى ساعته ويمضى ليلته فى فندق المدينة حزينًا مقهورًا ، ثم يبرق للوزارة طالبًا نقله ، ونعرف نحن فى مرحلة مبكرة أن فى الدنيا آلامًا رهيبة . . لا تسببها أمراض الجسم ولا عصا المدرسين أو المربين . . ولا أذى المعتدين على من هم أضعف منهم، على عكس ما كنا نظن حينذاك !



الانتقام

فى مقهى الأعيان أيضًا تبدأ وقائع هذه القصة .

كان الزمن زمن انتخابات . . وبالمدينة ثلاثة أو أربعة من المرشحين يتنافسون على الفوز بأصوات الناخبين . . والمنافسة حامية . . والأعيان منقسمون بين تأييد هذا وذاك ، وعُمَد القرى المحيطة بالمدينة لهم دور مشهود فى حشد الناخبين فى صف من يؤيدونه منهم . . والمرشحون يخطبون ودهم ليضمنوا تأييدهم أو على الأقل حسن استقبالهم لهم فى قراهم حين يزورونها . . وحول إحدى موائد المقهى كان عدد من الأعيان ، وبينهم عمدة إحدى القرى المحيطة ، يتحدثون عن الانتخابات ، حين اقترب منهم قريب لأحد هؤلاء المرشحين ونهض الجميع مرحبين به وبينهم العمدة . . فما أن يصافحهم حتى يشتبك على الفور فى مشادة مع العمدة يتهمه خلالها بتأييد مرشح آخر . . ويدافع الرجل عن نفسه . . لكن الغضب الأحمق يتملك قريب المرشح فجأة ، فلا يدرى الحاضرون به إلا وقد رفع يده وهوى بها على صدغ العمدة !

وذهل الحاضرون . . ثم أفاقوا من الذهول وحالوا بين المعتدى وبين الاستمرار فى عدوانه وانهالوا عليه لومًا وتقريعًا . . فى حين كبح المعتدى عليه جماح نفسه . . وتعفف عن الاشتباك بالأيدى مع الفتى الأحمق . . وجلس فى مقعده صامتًا حزينًا . . وراح كل من هم حوله يخففون عنه ويشيدون بحكمته وترفعه عن الدنايا . . ويجمعون على سفاهة المعتدى وحمقه وسوء أدبه . . ويسمع الرجل ما يقال دون أن ينطق بكلمة واحدة . . ووجهه يزداد تضرجًا بالانفعال الصامت لحظة بعد أخرى .

ويصبح الحادث حديث الأيام التالية . . وتجمع أغلبية الآراء على تقدير حكمة المعتدى عليه وقدرته على ضبط النفس ، مما حال دون أن تسيل الدماء فى المقهى ، لكن الأمر لا يخلو من اعتراض بعض ذوى الرؤوس الحامية الذين يعتبرون التسامح مع الحماقة ضعفًا لا يليق بمن أراد السيادة !

وتتصاعد حرارة الانتخابات . . وتشغل الأحداث المثيرة كل يوم انتباهنا فننسى واقعة الصفعة . . ويتوارى الحادث بتوابعه فى خضم الأحداث المثيرة . . إلى أن يرجع إلى بؤرة الاهتمام مرة أخرى مرتبطًا بحدث جديد ، فلقد روى الرواة أن ذلك المرشح بعد أن أمن من ردة فعل العمدة المعتدى عليه قد خرج فى موكب بالسيارات يزور القرى المجاورة داعيًا لنفسه ، فما أن مضى فى طريقه بضعة كيلو مترات حتى فوجىء بكمين يقطع عليه الجانبين ورجال ينهالون عليه وعلى مؤيديه وموكبه

بالعصى والشوم فتتكسر العظام . . وتسيل الدماء ، ويتحول الموكب إلى حطام وينقل الضحايا إلى المستشفى ، وليس بينهم من نجا من كسر بليغ أو جرح غائر ! وتحقق الشرطة فى اتهام المرشح للعمدة بتدبير الحادث انتقامًا لكرامته التى امتهنت فى واقعة الصفعة . . وينفى الرجل التهمة عن نفسه ، مؤكدًا للمحقق أنه كان وقت الحادث بين صحبه فى مقهى الأعيان بالمدينة ، وأن الموضوع قد انتهى فى حينه . . ولو كان قد أراد الانتقام لكرامته بالفعل لما انتظر عشرين يومًا أو أكثر لكى يفعل ذلك ! ويؤيد الشهود حديث الرجل ، فتعجز النيابة عن إثبات الاتهام وتقرر حفظ التحقيق فيه وتقييد الحادث ضد مجهول .

لكن الوجدان الشعبى لا يعترف بقرارات النيابة والشرطة فى مثل هذه الأحوال ، وإنما يصدر على الفور « قراره » هو باعتبار الحادث انتقامًا من جانب العمدة ممّن سبق أن اعتدوا عليه . . والأعجب أنه وهو يقرر ذلك يستشعر فى أعماقه « عدالته » ولا يعترض عليه !

ويقول الراوى الصغير وهو يتوسط حلقتنا معلقًا على القصة : إن صمت المجنى عليه إذا صمت قد لا يكون فى بعض الأحيان من الضعف ولا من التسامح ، وإنما قد يكون انتظارًا صبورًا للفرصة المناسبة للانتقام المؤثر !


المعهد الديني

فليكن

مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى هو قبلتنا فى شهر رمضان ، ومستراحنا عند الأصيل بساحته الواسعة الباردة نسبيًا فى حرارة الصيف ، وأعمدته العديدة التى تتجمع حولها حلقات الرواد . . ومقصورة ضريح صاحبه . . القطب الصوفى ، الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن بن على ـ رضى الله عنهما .

نستعين على مقاومة الجوع والعطش بعد أداء صلاة العصر بمحاولة النوم إلى جوار أحد الأعمدة ، أو السمر مع بعض الرفاق ، أو الانضمام إلى إحدى الحلقات المتناثرة لسماع درس العصر ، أو سماع قصيدة من الشعر الصوفى يلقيها أحد طلبة المعهد الدينى الابتدائى . . أو فى بعض الأحيان قصة قصيرة ـ مستوحاة غالبًا من التاريخ الإسلامى ـ كتبها طالب أزهرى آخر، ولم يجد لها «ناشرًا» سوى أسماعنا فى أصيل رمضان !

طلاب المعهد الدينى بالمدينة كلهم من أصول ريفية يجيئون من القرى المجاورة لمدينتى . . فيقيمون فى سكنى جماعية كل ثلاثة أو أربعة منهم

فى غرفة بأحد البيوت ، ويبدأون كفاحهم المجيد فى دراسة العلوم الدينية والأزهرية . . ونسمع « دَوِىّ » مذاكرتهم إذا أقام بعضهم فى أحد المساكن المجاورة لبيتنا ، وهم غالبًا موضع عطف السكان وأصحاب البيت لجهادهم فى سبيل العلم ، وغربتهم عن ذويهم وهم فتية صغار.

لباسنا نحن تلاميذ المدارس « الأفرنجية » ـ كما كان طلاب الأزهر يتندرون على مدارسنا الابتدائية الحديثة ـ بعد انتهاء الدراسة هو القميص والبنطلون أو البيجاما ، ولغتنا فى الظروف العادية : العامية البسيطة . . وفى ظروف التفاخر والتباهى : العامية المختلطة ببعض مفردات اللغة الإنجليزية التى نتعلمها فى المدرسة . . استشعارًا للتميز والأهمية !

أما هم فلباسهم ـ بعد الدراسة وخلع الكاكولا والعمة ـ هو الجلباب الشبيه بجلباب صبى المقهى البلدى ! . . والطاقية . . والشبشب . . مع تشمير الذراعين استعدادًا للوضوء . . ولغتهم فى الظروف العادية : العامية المطعمة ببعض عبارات الفصحى ، وفى ظروف التباهى والرغبة فى التميز : الفصحى المتقعرة بلا أى مناسبة !

وبسبب آفة الرغبة فى التميز هذه عرف أحدهم بيننا بـ « لزمة » يكررها فى حديثه عند أى جدال أو خلاف مع زميل حول أية مسألة دنيوية أو فكرية . . هى : فليكن ! . . ينطقها بكبرياء وأنفة غريبتين ، فيكون ذلك فصل القول فى موضوع الخلاف ! غير أن هذه « اللزمة » اللغوية كادت أن توردَه ذات يوم موارد التهلكة .

فلقد كانت الحياة السياسية مضطربة فى بلادنا فى ذلك الحين ، وكانت المظاهرات تخرج من مدارس المدينة والمعهد الدينى كثيرًا . . فإذا كانت الحكومة رفيقة بالناس تركت التلاميذ الصغار يخرجون إلى الشوارع وينفسون عما فى صدورهم ، ثم ينصرفون إلى حال سبيلهم . . وإذا كانت متشددة ، طارد رجال الشرطة هذه المظاهرات ، وقبضوا على زعمائها الصغار . . فيسرع أولياء أمورهم إلى مركز الشرطة لنجدة أبنائهم، واستعطاف الحكومة للإفراج عنهم .

وفى إحدى المرات كانت الأحوال السياسية عصيبة ، وخرجت مظاهرات المعهد الدينى فاختلطت بمظاهرة المدرسة الثانوية ، تحت شعار طريف رفعه زعماء المعهد هو: لا فرق بين طالب وتلميذ، باعتبار أن كلمة « طالب » تنصرف إلى طلبة المعهد وحدهم ، وكلمة « تلميذ » شبه الأعجمية تنصرف إلى طلاب المدارس المدنية دون غيرهم !

ووقعت بعض التلفيات الصغيرة فى مبنى حكومى ، وألقت الشرطة القبض على زعماء المظاهرة ، ووجهت إليهم تهمة التخريب . . وكان من بينهم صديقنا صاحب « اللزمة » اللغوية . . وهرول أبوه ـ الرجل الأمى الطيب ـ إلى مركز الشرطة ، فقيل له إن ابنه أحيل إلى النيابة ، فهرول الأب إلى النيابة واستأذن فى الدخول على وكيل النيابة . . ووقف يستعطفه بصوت متهدج ، ودمع متحجر فى عينيه ، أن يترفق بابنه ، وألا يضيع مستقبله . . وتأثر وكيل النيابة بمشاعر الأب ووعده خيرًا ،

وقال له : إنها مجرد إجراءات روتينية ، وسوف يسأل ابنه عن التهمة الموجهة إليه فينكرها وينتهى الأمر . . ومبالغة فى التلطف به استدعى ابنه أمامه ، وبدأ التحقيق معه . . فسأله عن تهمة الاشتراك فى المظاهرة، فلم ينكرها . . وسأله عن تهمة مشاركته فى إحداث التلفيات بالمبنى ، فأنكرها . . واستكمالاً للتحقيق فقط قال له وكيل النيابة : لكن فلانًا من زملائك يقول إنه شاهدك تحطم زجاج المبنى بطوبة . . قالها له بحكم العادة ومتوقعًا منه أن ينكر ذلك ، فيسأله : وهل بينك وبين فلان هذا خلاف يدعوه إلى أن يقول عنك ذلك . .

فيجيبه : نعم . . نحن مختلفان على بعض الأمور . . فينتهى التحقيق ويصرفه إلى حال سبيله . .

لكن الشاب ركبته فجأة عنجهيته المألوفة ، فإذا به يجيب على سؤال وكيل النيابة قائلاً فى كبرياء : فليكن !

وفزع الأب . . الذى كان قبل قليل يستعطف وكيل النائب العام للإفراج عن ابنه ، وشعر بأن الخطر يقترب منه بحمقه وعنجهيته . . فلم يشعر بنفسه إلا وهو يخلع حذاءه ، ثم ينهال به على رأس ابنه صائحًا فيه فى غيظ شديد : أهذا وقت « فلتكن » يا ابن . . . !

ولم يتمالك وكيل النيابة نفسه من الضحك لغرابة الموقف وعمق المفارقة بين هلع الأب على ابنه ، وحمق الابن الذى يكاد أن يورده مورد

الخطر . . فيطمئن الأب ، ويهدئ من روعه . . ويتجاوز عن إجابة الشاب المتهور، ويطلق سراحه . . وينصرف الأب شاكرًا لوكيل النيابة، وداعيًا له بالخير . . ويدفع ابنه أمامه وهو يتوعده . .

وتصبح حكاية « فليكن » هذه نادرة نتندر بها ، ومثلاً نرويه عن الحماقة التى أعيت من يداويها !



الحب فى شارعنا

يظن الكبار أنهم يستطيعون خداع الصغار والتخفى عنهم بشئونهم العاطفية . . بل واستخدامهم أيضًا عند الحاجة فى تيسير الاتصال بينهم وبين فتيات القلب المخدرات فى بيوتهن . . غير أن تجربة شارعنا مع الحب والمغامرة العاطفية قد أثبتت لى فى زمن مبكر أن للأطفال حاسةً قويةً فى استشعار النيات المبيتة وراء التصرفات التى تبدو للآخرين بريئة! كما أن لهم أيضًا ولعًا خفيًا باكتشاف علاقات الحب وتتبع إشاراته وفضح أسـراره !

كان بعض الشباب يأتون إلى شارعنا وقت الأصيل سعيًا وراء الحب والمغامرة العاطفية ، ويتوددون للصغار الذين يلعبون فى الشارع ويفتعلون الأسباب للحديث إليهم . . والاقتراب منهم . . فلا تنجح حيلهم فى خداع الصغار . . وتترجم عقولهم الصغيرة هذه المحاولات على الفور إلى معانيها الحقيقية . . وينفرون من هؤلاء الشباب ولا يتجاوبون مع ودهم المزيف ، فلا يجد هؤلاء مفرًا من مواصلة السير فى الشارع إلى نهايته متظاهرين بعبوره فى طريقهم إلى شئونهم . .

وحين يغادروننا نتهامس نحن بها وراء هذا المرور غير البرىء . . ونتوعد صاحبه بالويل والثبور إذا رجع لعبور الشارع من جديد، ونلفت نظر المستهدفين « بالود المزيف » إلى عدم الاستجابة له لما فيه من « عار » نربأ بهم أن يتورطوا فيه . . وكان هؤلاء المستهدفون دائمًا ممن لهم شقيقات فى سن الشباب ويأمل الكبار فى مصادقتهم وإهدائهم صورهم عسى أن تقع عليها أنظار الشقيقة المستهدفة ، فتنطلق سهام الحب من الصورة الفوتوغرافية التى يتخذ فيها الشاب دائمًا وضعًا جانبيًا يبرز أفضل وضع لتسريحة شعره . . وتغزو قلب الشقيقة فتستجيب لإشارات الحب التى سيداوم الشاب على إرسالها إليها كلما مر بهذا الشارع وقت الأصيل من كل يوم . .

فأما آفاق المغامرة فلقد كانت محدودة للغاية ، لكنها بمقاييس العصر كانت اجتراء سافرًا على الأعراف والتقاليد لا تحتمله « نخوة » الصغار ! وفى أصيل كل يوم سوف يقترب الشاب المغامر من مدخل الشارع مرتديًا أفضل ملابسه ومصففًا شعره على طريقة « أنور وجدى » . . ومستعينًا على تهذيبه بكمية كبيرة من الفازلين تلمع جبهته من أثرها . . ومشذبًا شاربه الذى يبدو عند التقليديين كثًا ثقيلاً . . وعند المجددين من شباب ذلك العصر كخط رفيع على غرار شارب نجم السينما الأمريكية القديم « دوجلاس فيربانكس » ، ثم يدخل الشاب الشارع فى وقار مصطنع ماشيًا ببطء متعمد ليتيح لعينيه فرصة التلصص على نوافذ

البيوت مؤملاً أن تكون المحبوبة فى نافذة بيتها فيسعده الحظ بالنظر إليها. . وإرسال الإشارات والتحيات التى لا تخفى على عيون الصغار لها، فإذا أسعده الحظ بظهورها فلسوف يبطىء أكثر وأكثر من خطوته ويتلفت حوله محاذرًا أن يطلع على سره أحد الكبار ، حتى إذا اطمأن إلى تغافلهم عنه رفع يده بحذر ومسح بها على جانب شعره متظاهرًا بتسويته . . فتكون تلك « الحركة » هى إشارة التحية يبعث بها من مكنون القلب إلى فتاته المطلة من نافذة بيتها ، ولسوف يترقب بعدها بإشفاق رد فعلها عليها ، فإذا أسرعت بالدخول من النافذة وأغلقتها بعنف فلقد باء بالرفض والخيبة . . وإذا صمدت فى موقعها فلقد تلقت الإشارة ولم تجد مانعًا من قبول التحية ، فإن كانت من بطلات الحب والمغامرة فلسوف «تذهله» بأكثر مما يتوقعه منها وترد التحية بمثلها وتمسح على شعرها فيَثمَل الشاب طربًا . . ويحاول بقدر الإمكان أن يطيل فترة عبوره للشارع حتى لا يتجاوز بيت الفتاة وتنقضى النشوة سريعًا . . وليس بعيدًا أن يتلفت حوله فيجد بعض الصغار يلعبون ، أو يرمقونه بنظرات غير ودية احتجاجًا على عدوانه على حرمة الشارع . . و « أعراض » فتياته . . فيحاول ملاطفتهم . . واختلاق الأسباب للحديث معهم ليفوز ببضع لحظات أخرى من « خمر » الحب والمتعة . . غير أن محاولاته تقابل دائمًا بروح عدائية من جانب الصغار ، فيمضى فى طريقه متعلقًا بالأمل السعيد فى موعد الغد فى نفس الوقت . . ويتميز الصغار غيظًا . .

ويرمقون الفتاة « المستهترة » بحنق شديد ، وقد يتجرأ عليها بعضهم فيتوعدها بفضح أمرها لدى أبويها وأشقائها الكبار !

أما الشاب المغامر فلسوف يدمن العبور من الشارع كل أصيل كأنما لا يجد طريقًا آخر للوصول إلى غايته سواه، وإذا كان من «أهل الفجور» فليس مستبعدًا أن يرجع ذات يوم حاملاً فى يده باقة صغيرة من الورد يتشممها أو يتظاهر بذلك ، فى حين أنه ـ كما يكتشف ذكاؤنا بسرعة ـ إنما يقبلها ويبعث ـ ياللوقاحة ـ بقبلاته إلى المحبوبة من خلالها . . فيغلى الدم فى العروق الصغيرة . . ولولا فارق القوة الجسمانية الهائل لصالحه لما منعنا مانع من دعوته للنزال انتصارًا لكرامة الشارع المهدرة !

فإذا فاق فجوره كل الحدود فليس من المستبعد أن يحاول إغراء أحد الرفاق الصغار بحمل هذه الباقة الصغيرة إلى المحبوبة ، حيث أخفى بحرص قصاصة صغيرة من الورق داخلها . . لكن هيهات أن تنجح ألاعيب المفتونين بشبابهم فى خداع « الرجال الصغار » من حماة الشارع والمدافعين عن أعراضه . . ولو كان الإغراء كبيرًا !

وإلى هؤلاء الشبان الغزاة كان يتوجه معظم عدائنا وتحفزنا فى تلك الأيام البعيدة . . ومن عجب أننى لم أشهد فى طفولتى قصصًا عاطفية من هذا النوع تكتمل بالزواج ، إذ كان كثيرون من شباب ذلك الجيل يفصلون فصلاً تعسفيًا غير مفهوم بين الحب والزواج ، ولقد يقوم أحدهم بمثل هذه المغامرة فى « شارعنا » أو فى شارع غيرنا ثم يقرر الزواج

فيفوض والدته فى اختيار عروس مصون له بغير أن يفكر فى خطبة من شاغلها بالنظرات ومسح الشعر وتقبيل الورد فترة طويلة ! . . كما كانت القصة نفسها قد تتعرض للانتكاس من جانب الفتاة سريعًا فى أحيان أخرى ، إذ لا يلبث أن يطرق بابها خاطب فوض والدته فى اختيار عروس لـه . . فترحب به بلا تردد . وتحتجب عن الظهور فى النافذة ، وتقبل على حياتها الجديدة بحماس وابتهاج ، ونستريح نحن من عبء حماية الآداب العامة فى شارعنا والذود عن حرماته .

فإذا سمعنا ذات يوم ـ ونحن نلعب ألعابنا المعتادة بالشارع ـ دَوى الزغاريد ينطلق من أحد البيوت . . ترقبنا البهجة الوشيكة التى سنستمتع بكل فصولها بعد قليل . . وشهدنا فى أيام متوالية الفتاة الموعودة بالسعادة وهى تغادر بيتها مع والدتها ، ثم وهما ترجعان محملتين بالمشتريات وقطع القماش . . ويستقبل شارعنا ضيوفًا جددًا عليه ، هم العريس وأفراد أسرته فى زيارات معلومة تتخللها زغاريد البهجة والانشـراح . .

ثم يأتى أحد الأيام الواعدة بالبهجة ونعرف أن أسرة العروس سوف تنقل أثاث العروس اليوم إلى عش الزوجية . . فإذا كانت من ذوى اليسار فلسوف ينقل أثاثها وجهازها فى موكب من عربات النقل المكشوفة التى ترص فوقها قطع الأثاث وكل مستلزمات البيت ، من المفروشات حتى صينية « القلل » ولو تطلب الأمر توزيع كل قطعتين من

الأثاث على عربة ليكتمل الموكب . . وفى أصيل أحد الأيام سوف نشهد الركب يمضى فى الشارع الرئيسى للمدينة تتقدمه فرقة الموسيقى النحاسية فى صفين ويتوسطها قائد الفرقة عازف الكلارنيت . . ولسوف نعجب كثيرًا حين نرى بين أفراد الفرقة العشرة عددًا من الحرافيش والصيَّاع الذين لا عمل لهم ولم نعرف عنهم من قبل سابق صلة بالموسيقى . . لكن عجبنا يزول فيما بعد مع التقدم فى العمر حين نعرف أن العازفين الحقيقيين فى مثل هذه الفرقة لم يكن يزيد عددهم عادةً عن أربعة أو خمسة هم الذين يحملون آلات موسيقية حقيقية ويتولون العزف طوال الزفة ، أما الباقون فقد استأجرهم صاحب «الفرقة» لقاء ٥ قروش ، وطلب من كل منهم ارتداء الزى الموحد للفرقة بلونه الكاكى وشرائطه الحمراء على ساقى البنطلون ، ثم سلمه آلة نحاسية كبيرة معطلة أو مسدودة وطلب منه التظاهر بالنفخ فيها طوال الموكب لكى يكتمل للفرقة مظهرها الكريم . . ومن هذه النقطة وُلد التعبير الشهير الذى يطلق على من يتظاهر بالعمل ولا يعمل فيقال عنه إنه « لابس مزيكة » !

وسواء أكان عدد العازفين الحقيقيين أربعة أم عشرة ، فلسوف نصاحب نحن الفرقة سعداء بموسيقاها « الجميلة » ، التى عرفنا فيما بعد أنها مسوخ مشوهة لمقطوعات عالمية لـ« موزار » و « باخ » و « بيتهوفن » توارثها أصحاب هذه الفرق عن آبائهم وجدودهم ،

وأضاف كل جيل منهم إليها مزيدًا من النشاز والتشويه حتى لم تعد تربطها بأصلها صلة . .

ومن حين لآخر تتوقف الفرقة أمام أحد المقاهى المطلة على الشارع الرئيسى ويستدير قائدها ناحية المقهى فيتبعه بقية أفرادها . . ويقومون بعزف سلام « محمد شايل سيفه » تحية لصاحب المقهى ورواده . . ثم يواصل الموكب السعيد مسيرته إلى غايته المنشودة ، ولكم كان يسعدنا أن تتوقف الفرقة أمام مقهى عثمان الذى يقع على رأس شارعنا وتعزف تحيتها للمقهى وصاحبه ورواده ؛ فنشعر نحن بأن التحية تشملنا أيضًا باعتبارنا من أبناء هذا الشارع المجيد الذى تحييه الفرقة الكبرى فى المواكب السعيدة .

وبعد أن يجول الموكب جولته ينتهى به المطاف إلى بيت الزوجية ، فتنزل السيارات حمولاتها وتختتم الفرقة الموسيقية « جهادها » مع آلاتها الخربة بعزف السلام الملكى القديم ، الذى عرفنا أيضًا فيما بعد أنه جزء من أوبرا عايدة للموسيقار « فردى » .

ثم يكون هذا الموكب بشيرًا بقرب البهجة الكبرى بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر ، إذ نصحو من نومنا ذات يوم فنجد عمال الفراشة ينشطون فى إقامة سرادق فى عرض الشارع ، ورفع الرايات الخضراء التى تمثل العلم المصرى القديم عليه ، وتعليق الأنوار والزينات ، ورصّ المقاعد فى صفوف متوالية على غرار مقاعد المسرح ، ثم إقامة المنصة التى ستجلس

عليها العروس والفرقة الفنية التى ستحيى « ليلة الحِنَّة » ، وهى الليلة التى تسبق الزفاف ، وتحتفل بها أسرة العروس فى بيتها ، ويحتفل بها العريس فى بيته .

وفى الموعد المرتقب يمتلىء السرادق بالمدعوين . . ونبحث نحن لأنفسنا عن موطىء قدم فيه . . ثم تهل العروس هابطة من بيتها محاطة بصديقاتها المخلصات وهى ترتدى فستانًا فزدقيًّ اللون أو ورديًا أو بنفسجيًا ، ثم تجلس فى المقعد المخصص لها فوق المنصة ، وتبدأ فرقة العوالم الشهيرة عملها ، ونحن فى نشوة بالغة ، فتغنى « الأسطى طعمة » صاحبة الفرقة ونجمتها المخضرمة ، ويغنى زوجها عازف البيانو القديم «محمود المزوّق» ، ولا أدرى هل هذا هو اسمه الحقيقى أم أنه قد اكتسبه من حبه للوجاهة وشعره الأسود اللامع بالفازلين ؟! وترقص الأسطى «نجيـة» الإسكندرانية وتغنى . . ويلقى « عبد الباعث » بفكاهاته ومونولوجاته . .

وفى غمار هذه النشوة الطاغية نفاجأ بتوقف الموسيقى ومغادرة العروس للمنصة . . ونتساءل فى انزعاج عن السبب ، فيجيبنا أهل الخبرة بأن العروس لا بد لها من أن ترتدى فى حفل ليلة الحنة ثلاث فساتين تستعرض بها ذوقها وأناقتها وقدرتها المالية ، ولهذا فقد غادرت الحفل لتغير فستانها وسوف ترجع بعد قليل ، وتتحقق النبوءة بالفعل . .

ويستأنف الحفل من جديد ، وتمضى الليلة كلها فى بهجة خالصة حتى الثانية صباحًا أو تزيد .

وفى مساء اليوم التالى يتكرر الحفل ويبدأ فى نفس موعده فى الثامنة مساء ، لكننا نلاحظ أن مقعدًا خاليًا جديدًا قد أضيف إلى جوار مقعد العروس . . ونلاحظ أيضًا بأسى شديد أن الفرقة الفنية لا تُخْلِص للغناء والرقص كما ينبغى لها أن تفعل ، وإنما تنشغل بجمع «النقوط» أكثر من انشغالها بالغناء ، وكأنها تسابق الوقت قبل انتهاء المناسبة ، ثم يشتعل السرادق بالزغاريد فجأة ، وينبهنا ذوو الخبرة السابقة إلى أن هذه إشارة مؤكدة لوصول العريس إلى الشارع وسط هالة من الأصدقاء والأحباب . . ثم لا نلبث أن نسمع هتافًا مدويًا من الأصدقاء والأحباء يحيون به صديقهم قائلين : يحيا العريس . . ويتردد الهتاف الصاخب بحياة العريس كأنه زعيم سياسى أو قائد راجع من معركة مظفرة . . ويشق الشاب الموعود بالسعادة طريقه إلى المنصة ليشغل المقعد الخالى إلى جوار عروسه . . فلا تنظر هى ناحيته ولا ترفع إليه بصرها ، وتظل «الطَّرحة» مسدلة على وجهها طوال فترة جلوسه إلى جوارها . . ويزداد نشاط الفرقة الفنية فى جمع النقوط قبل أن ينفض الحفل الذى يعرفون جيدًا أنه لن يطول كليلة الأمس ، ونحزن نحن لأن الغناء يتوقف كل جملة وأخرى لتعلن « العالمة » عن تحية أحد المدعوين للعريس أو أسرة العريس ، ونأمل أن تهدأ هوجة النقوط بعد قليل لكى نستمتع نحن

بالغناء والرقص والمونولوجات . . فنفاجأ بالعريس بعد نصف ساعة على الأكثر من وصوله وهو ينهض واقفًا ، ويدعو عروسه للتحرك فلا تستجيب لدعوته من أول مرة ، وتصعد والدتها أو شقيقتها للمنصة وتقيمها من مقعدها كأنها لو تركت لنفسها لما نهضت ! ثم تأخذ بذراعها وتشبكها فى ذراع العريس الذى يمضى شامخًا بين زحام المدعوين إلى طريق الهناء مشيعًا بالزغاريد ودقات الدفوف !

وينفض الفرح ولـمَّـا تتعدَّ الساعة بَعْدُ العاشرة والنصف أو الحادية عشرة مساء ، ويبدأ العمال فى هدم السرادق وإطفاء الأنوار وإنزال الزينات. . ونحن نتحسر على البهجة التى اختزلت . . والفرحة التى وُئِدت قبل الأوان ، ونرجع إلى بيوتنا ونحن نتساءل فى مرارة : لماذا تقصر أوقات البهجة دائمًـا فى الحياة ، وتطول أوقات الأحزان ؟!

الرئيــس

انضممت إلى شلة الشارع فوجدت لها « رئيسًا » من الغلمان يحظى بما يحظى به كل رئيس من سطوة وهيبة ونفوذ !

ولأننى قد انضممت للحلبة متأخرًا فلم أعرف متى تم اختياره للرئاسة ولا ما هى مؤهلاته التى رشحته لها . . ولا هل هو رئيس ديمقراطى «صعد» إلى منصبه بالانتخاب الحر، أم أنه رئيس «أتوقراطى» مستبد نال موقعه بالاغتصاب أو القوة ، لكننى أحسب الآن أنه قد جاء إلى موقعه بقانون الانتخاب الطبيعى الذى يعطى للسن مكانة كبيرة . . وللقوة مكانة أعلى . .

وكان رئيس شارعنا صبيًا توقف عن الدراسة فى المرحلة الابتدائية وألحقه أبوه الميكانيكى بالعمل بمحل ترزى ، فكان أول ما توقف أمامه عقلى الصغير من تناقضات الحياة ، هو كيف يكون « الرئيس » مشغولاً عن رعيته بعمل آخر يحجبه عن مهامه الجليلة فى الشارع من الصباح حتى آخر الليل ؟

ولماذا لا نراه بيننا حين نحتاج إليه ليدفع عنا عدوان صبيان الشوارع الأخرى حين يشنون علينا غاراتهم ؟

وكيف يستقيم الحال . . وهو لا يظهر فى مملكته إلاّ يوم الأحد فقط من كل أسبوع موعد عطلة المحل الذى يعمل به . . وإلاّ فى بعض الأمسيات المتأخرة حين يغلق المحل أبوابه مبكرًا بعض الشىء ؟

لكن هذه التساؤلات لم تخرج عن حدود عقلى الصغير . . وسلمت بما يسلم له به الجميع من مهابة واحترام . . ولاحظت أنه حين يجلس بين «رعيته» على رصيف الشارع فى المساء تحيط به المهابة من كل جانب ، فلا يجرؤ أحد على مخالفة أوامره وتعليماته إذا اقترح ممارسة إحدى الألعاب الجماعية ، أو قرر أمرًا من أمور الشلة . . كمخاصمة فلان لخروجه على قانون الشارع أو مصالحة آخر ، وكانت اللعبة المفضلة لديه كلما حظى الأتباع منه بجلسة صفاء واستمتاع فى المساء هى لعبة « الجوال » ، فيأمر بإحضار جوال قديم من بيت أحد الأتباع ، ويأمر أحد الغلمان بالدخول فيه ، وآخر بربط الجوال عليه والوقوف به فى نهر الشارع متظاهرًا بمحاولة حمله كأنه بعض المتاع . . فيفشل فى ذلك بالطبع . . ويستنجد بأول عابر للطريق أن يساعده فى حمل الجوال ، ويقبل الرجل على مساعدته بحسن نية ، وما أن يهم برفع الجوال ليضعه فوق ظهر الصبى حتى يصرخ الصبى المختفى داخله . . ويتحرك ، فيفزع الرجل فزعًا شديدًا . . ويستغرق الصغار فى الضحك لفزعه وارتباكه . .

ويكتشف الرجل اللعبة السخيفة فيتراوح رد فعله بين الضحك «الشيطنة» هؤلاء الأولاد والمضى إلى حال سبيله ، وبين السخط على عبثهم به وضرب أو سب من غرر به . . وسب الملاعين الآخرين الذين يرقبون الموقف عن قرب وهم فى قمة السعادة والانشراح !

وتدور الأيام دورتها المألوفة ويزداد « الرئيس » انشغالاً بعمله وحياته عن شئون موقعه ، وغيابا عنه . . ولا يغنى عن غيابه وجود « وكيل » له من بين الصبيان . . ينقل إليه شئون الرعية وأنباء بذور التمرد التى بدأت تظهر بينهم لكثرة الغياب ، وكشرارة الحريق التى تندلع فجأة بغير مقدمات اندلعت أيضًا شرارة الثورة على الرئيس المهمل لواجباته ، فيجتمع الرفاق ـ بغير تدبير سابق ـ ذات أصيل فى الشارع .ويتفقون على خلع هذا الرئيس اللاهى ، وتنصيب آخر بدلاً منه . . وتهديهم عقولهم الصغيرة إلى أن أفضل وسيلة لإعلان قرارهم « التاريخى » هذا هو أن يصطفوا جميعًا فى طابور طويل يمضى إلى المحل الذى يجلس على بابه الرئيس المخلوع منحنيًا على بنطلون يخيطه ، ثم يهتفون خلال مرورهم به بسقوطه ، وحياة الرئيس الجديد ، ويفعلون ذلك بالفعل بعد أن تخلصوا من تهيّبهم له . . وشقوا عصا الطاعة له . . ويرفع الرئيس المعزول رأسه عن البنطلون وينظر إلى الأطفال العابرين أمامه ، فى ازدراء واستخفاف ، ثم يرجع إلى عمله من جديد فى هدوء .

ونرجع نحن إلى الشارع منفعلين بالإثارة الشديدة التى شعرنا بها ونحن نعلن سقوط دولة التسيب والإهمال . . وقيام دولة العدل والإخلاص فى شارعنا . .

ولا ندرك خلال ابتهاجنا الشديد بنجاح الثورة وتوفيقها ، أن الرئيس السابق كان قد تخطى منذ زمن دور الطفولة . . ودخل بداية مرحلة الشباب . . وأنه لم يعد يعنيه من أمرنا أو أمر شارعنا شيئًا كثيرًا .

المهرجان

نتام مجهدين وقد تلوثت أصابعنا بالأصباغ المختلفة بالرغم من التحذير والتهديد . . فلقد أصررنا نحن الصغار على أن نشترك فى صبغ البيض بالألوان الزاهية فى المساء استعدادًا لاحتفال شم النسيم فى الصباح التالى . . وبعد شىء من المغالبة للأرق بسبب تعجلنا انقشاع الظلام وظهور الصباح نستغرق فى النوم متعبين . . وننهض على غير العادة عند أول نداء ، نرتدى ملابس جديدة . . ونحصل على «العيدية» ونتجه إلى موقع الاحتفال التقليدى بشم النسيم . . فى عيد الفطر وعيد الأضحى نتجه إلى ساحة العيد بجوار المسجد الإبراهيمى . . أما فى شم النسيم فإننا نتجه إلى « الجزيرة » وإلى « النيل » ، فثمة جزيرة فى مجرى النهر أمام مدينتنا يتجه إليها أبناء المدينة عبر الكوبرى القديم منذ الصباح الباكر . . وعلى شاطئها يتجمعون ، ويتناولون إفطار شم النسيم التقليدى من البيض والخس والملانة . . ويشاهدون المهرجان الذى لا تعرفه المدينة إلا فى هذا اليوم وحده كل سنة . . فمنذ الصباح الباكر يأتى

إلى المكان شجعان المدينة من المغامرين الذين لا يشق لهم غبار ولا يخشون الهلاك ، فيخلعون ملابسهم ، مكتفين بالشورت الداخلى أو المايوه . . ثم يصعدون إلى الكوبرى وسط تشجيع الحاضرين ويتسلق الواحد منهم بجسارة متناهية « درابزين » الكوبرى ويتدلى بساقيه فى اتجاه الماء . . ثم يقفز فجأة من ارتفاع الكوبرى فى مياه النهر فتنخلع قلوبنا نحن من الإثارة والترقب والخوف . . ونسمع لارتطامه بالماء صوتًا مدويًا ، ويختفى جسمه كاملاً تحت سطح النهر صانعًا فى مكان الهبوط دوائر متسعة من المياه ، فنحبس نحن أنفاسنا . . ونركز أنظارنا على صفحة النهر إلى أن تهتز دوائر المياه مرة أخرى ويبرز رأس السباح الشجاع من تحت الماء فنطمئن إلى أن القفزة قد نجحت بسلام ، وتلتهب أكفنا بالتصفيق وحناجرنا بالصياح ، ويخرج البطل من الماء محاطًا بالإكبار والإجلال . . فيستريح قليلاً ويتسلى بمشاهدة قفزات الآخرين، ثم يصعد إلى الكوبرى ويكرر المعجزة مرة أخرى ، وهكذا طيلة صباح يوم المهرجان وحتى اقتراب الغروب ، وعودتنا منفعلين ومشحونين بالمتعة والإثارة إلى بيوتنا . ونتساءل نحن عن هؤلاء الأبطال الذين يقدمون لنا هذا العرض المجانى المثير كل سنة . . فنعرف أنهم جميعًا حرفيون وباعة متجولون وبسطاء لم يتلقوا أى تدريب على الغطس . . ولا على كيفية تجنب أخطار الارتطام بالماء ، وإنما تعلموا السباحة بالممارسة فى نهر النيل ، ثم شاهدوا الأبطال السابقين يقفزون من

فوق الكوبرى إلى النيل فى شم النسيم . . فخاضوا التجربة بجسارة . . واكتسبوا الخبرة بالمخاطرة !

ونعرف أيضًا أن آباء معظم هؤلاء الأبطال لا يرضون عن تعريضهم لأنفسهم للخطر على هذا النحو ، وأنهم يحظرون عليهم الاشتراك فى هذا المهرجان ، لكن الأبطال يتحايلون على أوامر الآباء لإسعادنا ، وقد يتلقى بعضهم العقاب أو اللوم بعد العودة من المهرجان !

وبين قائمة الأشاوس والأبطال تثبت فى الذاكرة صورة واحد منهم . . كان جسمه فارعًا وشاربه كثًا ومظهره مهيبًا وجرأته عالية . . فكان أول من أقدم على القفز فى الماء بالرأس والذراعين إلى أسفل وليس بالقدمين ، كما كان كل زملائه يفعلون . . فاستحق منا الإعجاب والإشادة ، ومع كل قفزة جريئة له كانت مكانته تتدعم فى نفوسنا . . ومحبته والإعجاب به يستقران فى القلوب ، حتى ليصبح المثل الأعلى لنا جميعًا فى القوة والمهابة والاحترام ، ويصبح من ينال منه لفتة اهتمام أو نظرة محسودًا من الآخرين ، وكلما غادر الماء بعد قفزة ناجحة التف حوله الصغار معجبين ومشجعين وهو ينظر إليهم من علٍ ولا يرد على أحاديثهم . . فنصاحبه فى زفة إلى الكوبرى استعدادًا للقفزة التالية . . ولقد فعلنا ذات يوم وهو يتقدمنا فى جسارة وكبرياء . . وقبل أن يهم بارتقاء « الدرابزين » فوجئنا ببطلنا الجسور يصرخ فى فزع : أبويا ! ، ثم يطلق ساقيه للريح ، وهو لا يرتدى شيئًا إلا المايوه الصوفى المتهرئ . . ونرى رجلاً يحمل عصا غليظة

قادمًا من الاتجاه الآخر وهو يسب ويشتم الولد الصائع الضائع الذى لم يفلح فى مهنة ، ويفرح فقط بالتفاف «العيال» حوله وتعريض نفسه للخطر كل حين !

وتتلقى صورة البطل الجسور فى مخيلتنا طعنة دامية ، لكننا للعجب لا نفقد احترامنا له ولا نكف عن الإعجاب به حين يشارك فى المهرجان التالى خفية من وراء أبيه !

الحـــرية

نتطلع نحن الصغار إلى شباب المدينة الصغيرة التى نشأنا فيها بالإعجاب والانبهار ، نلحظ كبرياءهم وترفعهم عن مخالطة الصغار من أمثالنا ، فلا يقلل ذلك من إعجابنا بهم أو من تطلعنا لأن نصبح مثلهم ذات يوم ، مع وعد صادق منا بألا نترفع على الصغار وألاّ نردهم عن الاقتراب منا إذا رغبوا فى صداقتنا ! نراهم عند الأصيل يتنزهون نزهتهم اليومية فى الصيف فيمشون فى جماعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص . . يلف أحدهم سلسلة على إصبعه يمينًا ويسارًا من باب التسلية .

ويرتدى الآخر قميصًا من المربعات ، ويضع الثالث نظارة طبية تضفى عليه هيبة يبدو معها وكأنه عالم يجرى أخطر الأبحاث ، فأما شعورهم جميعًا فطويلة وغارقة فى الفازلين ومصففة على طريقة أنور وجدى، وأما أحاديثهم فعن الجامعة . . والكليات . . وزميلات الدراسة . . والبعثات الخارجية التى يطمحون للفوز بها بعد الحصول على الشهادات ، وأفلام السينما . . ومباريات الكرة .

وأما النزهة نفسها فليست غالبًا سوى مشوار طويل من المشى فوق كوبرى المدينة القديم ذهابًا وإيابًا . . ولم يكن نادرًا أن ينحنى أحدهم على الأرض لالتقاط السلسلة التى يتلهى بها فينسدل شعره الطويل على وجهه ثم يعتدل فى وقفته ويرجع برأسه إلى الخلف بقوة ليعيد شعره إلى طبيعته كما كان يفعل أنور وجدى فى الأفلام القديمة . . ونرقب نحن هذه الحركة بإعجاب وتتجدد حسرتنا لحرماننا القهرى من نعمة الشعر الطويل التى لا يسمح بها الأهل إلا للشباب الموعودين بالمستقبل المشرق. أما نحن الصغار فمهما نرجو حلاق الأسرة أن يدع شعرنا على حاله ، فلن يستجيب للرجاء ، ولن يفعل إلا ما أمر به من الأهل وهو تقصير الشعر إلى أقصى حد ممكن ، وبسبب هذا التعنت تصبح حرية إطلاق شعر الرأس إحدى الحريات التى نطالب بها ونناضل لانتزاعها، كما تناضل الشعوب المقهورة لانتزاع استقلالها من المحتلين !

ومن بين شباب المدينة تتوقف أنظارنا عند شاب ترشحه ملامحه البلقانية وبشرته البيضاء لأن يكون أجنبيًا ، لكن حديثه وسلوكه يدرجانه بين أبناء البلد الذين لا تستطيع التفرقة بين أحدهم وغيره فى الشكل واللغة والملامح . . ثم نعرف أنه بالفعل يونانى ينتمى لأسرة يونانية مقيمة فى مدينتنا وتمتلك لوكاندة فيها . . ونراه بين قرنائه من الشباب يتكلم العامية المصرية بأفضل مما يتكلمها بعض أهل المدينة . . ويزداد إعجابنا به حين يتكلم اللغة الفصحى فيحرص على مخارج الحروف

السليمة، وقواعد النحو . . وسلامة الإعراب . . ونتساءل متعجبين كيف أجاد لغتنا القومية كل هذه الإجادة وهو الذى قد نشأ فى بيت لغته اليومية هى اليونانية ؟! فتجىء الأخبار بأن تفوقه فى اللغة هو أيضًا مثار إعجاب أساتذته بالمدرسة الثانوية . . وأن بعضهم قد نصحه بأن يلتحق بعد الحصول على الثانوية العامة بقسم اللغة العربية بكلية آداب الإسكندرية ، ونضحك نحن للنصيحة ولا نعلق عليها أملاً كبيرًا .

ثم تظهر نتائج الثانوية العامة بعد حين وينجح الشاب اليونانى فيها . . ويبدأ شباب المدينة فى الاستعداد للهجرة للإسكندرية للالتحاق بجامعتها ، ويذهب معهم صديقهم اليونانى ، فإذا به يستجيب لنصيحة أساتذته بالمدرسة الثانوية ويلتحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية ، ويتفوق فى دراسته ويحصل على شهادته فى اللغة بتقدير متفوق!

ويصبح حب هذا الفتى للغة العربية وتفوقه فيها رافدًا إضافيًا يصب فى نهر الحب الكبير للغتنا القومية فى أعماقنا . . وحافزًا آخر للحفاوة بها .



الحـــذاء

فى الجزء الجنوبى من شارعنا تقع بعض المنازل الشعبية الفقيرة التى يقيم فيها أهلها البسطاء من الباعة والحرفيين ، وفى طفولتنا يعجب الخيال بمن تتوافر فيهم سمات البطولة بغض النظر عن مواقعهم الاجتماعية من أهل الشارع ، فلا عجب أن تستأثر بإعجابنا بعض شخصيات الجنوب الفقير من شارعنا لشهامة بادية عليهم أو قوة جسدية يتمتعون بها ، ربما بأكثر مما قد نعجب أحيانًا ببعض شخصيات «الشمال» ـ الذين يتميزون بالجاه والمال ـ ولا تغرينا شخصياتهم النمطية بالانبهار بهم . ومن بين شخصيات الجنوب من البسطاء تصمد فى الذاكرة شخصية رجل قصير كان يحترف مهنة بائدة انقرضت الآن من شارعنا، وربما من كل الشوارع ، هى مهنة السقاء ، ولقد كانت عدته لممارسة مهنته هى جاكيت جلدية رثة يرتديها فوق جلبابه المشمور دومًا فوق الركبتين ليتيح لساقيه العاريتين حرية الحركة بلا عناء ، يحمل عليها قربة كبيرة سوداء فتحمى ملابسه من الابتلال ، ثم حمار يمتطيه مع

قربته، فيحصل على الماء النظيف من حنفية عمومية فى أحـد أنحـاء المدينة، ويطوف على البيوت التى لم تدخلها شبكة مياه الشرب بعد ، فيزودها بحاجتها من المياه من قربته لقاء أجر شهرى معلوم ، فإذا بلغ بحماره أحد هذه البيوت نزل عن حماره وأنزل قربته ثم انحنى على رجل الحمار الأمامية فرفعها وعلّقها فى حبل يتدلى من البردعة ، ليمنعه من الحركة تمامًا كما يفعل قائد السيارة حين يشد فرملة اليد عند مغادرته لها ليمنعها من الانزلاق ، ثم يدخل البيت المقصود حاملاً قربته ويؤدى مهمته الجليلة ويرجع بعد قليل ليمتطى حماره ويتجه به إلى بيت آخر .

غير أن عبث الصغار وميلهم الغريزى للمشاغبة كان يفسد عليه فى كثير من الأحيان خطة العمل ، فلقد اعتاد بعض صغار الشارع أن يراقبوا هذا الرجل عن بعد وهو يؤدى عمله ، فما أن ينزل عن حماره ويعلق رجله ويدخل أحد البيوت حتى يتسللوا إلى الحمار ويفكوا رجله المعلقة ويسرعوا بالفرار ، فما أن يتحرر الحمار من قيده حتى يهرول عائدًا وحده وبغير دليل إلى بيت صاحبه ، الذى يحفظ الطريق إليه عن ظهر قلب مهما تبعد به المسافات ، ويخـرج صاحبه من البيت الذى كان فيه فلا يجد « سيارته » فى انتظاره ويدرك على الفور أن شياطين الشارع الصغار قد حرروا حماره من قيده ، فينطلق لسانه لاعنًا ومتوعدًا ، ويرجع إلى بيته ليستعيد الحمار وهو يوزع شتائمه وتهديداته على الجميع بما فيهم الحمار نفسه ، ونتكتم نحن الضحكات الشريرة بجهد جهيد حين يعبر

بنا الطريق مكفهرًا ومرددًا وعيده الشهير بأن يضرب من يكتشف أنه هو الذى فك رجل الحمار « بالجزمة » ، هو وكل من يتصدى للدفاع عنه !

وترتجف القلوب الصغيرة وجلاً بالرغم من سرورها الخفى بالموقف العصيب ، ويعبر بنا الرجل عائدًا بحماره بعد قليل لمواصلة عمله وهو ينظر إلينا شزرا ولسانه يواصل إطلاق قذائفه ، ويكرر وعيده المرعب بالضرب بالحذاء عند اكتشاف الجانى ، وهو وعيد ألفت الأذن سماعه فى هذه المناسبة وفى غيرها من المناسبات العديدة ، كأن يتشابك طفل من أبناء الشارع مع ابن لهذا السقاء فى شأن من شئون الصغار المألوفة فيهرول الأب قادمًا من اتجاه بيته متوعدًا بأن يضرب الطفل المعتدى « بالجزمة » هو ومن يعترض طريقه فى ذلك ، فيسرع الطفل بالفرار ، ويرجع السقا بابنه وهو يهدر بالسباب والوعيد .

شيء واحد فقط كان يخدش «جلال» هذا الوعيد المخيف ويحيله فى أسماعنا إلى بهجة خفية نجاهد جهاد الأبطال لكيلا تظهر آثارها على الوجوه ، فتعرضنا لما لا نحبه ونرضاه ، وهو أن هذا السقا كان من أهل الحفاء ، ولم يُـرَ ذات يوم منذ مولده وإلى مماته وهو يرتدى أى حذاء من أى نوع ، كما لم يكن من أبنائه كبارًا وصغارًا أو من زوجته وبناته من عرف الحذاء ذات يوم فى ذلك الزمن السعيد !


قهوة المعلم

أحــلام القــوة

خيال الأطفال يتسم دائمًا بالجموح .. والقوة الجسدية تلوح للجميع كحلم سعيد بعيد المنال . . من ناله فقد نال المهابة والجلال!

وفى جلساتنا فى الشارع القديم يتبارى البعض فى إلهاب خيالنا بما يحكونه عن قدرات خارقة للآخرين ، ويحسم البعض مساجلاتنا دائمًا بإعلان أن « الملك » ـ وكنا فى عصر الملكية ـ يستطيع أن يفعل ما يعجز عنه الجميع من معجزات ، فيستطيع أن يعبر النيل من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية فى قفزة واحدة ، ويستطيع أن يلتهم وحده خروفًا مشويًا ، وأن يرفع سيارة بيده اليمنى وحدها . . والجميع يصدقون وينبهرون ! ولا عجب فى ذلك ولا اعتراض ، فهو « الملك » الذى يحكم البلاد والقادر وحده على كل ما يعجز خيالنا عن تصوره ، ولو لم يكن كذلك لما استحق عرش البلاد ، ولا فاز فى تقديرنا باحترام الآخرين !

ويشطح الخيال بأحدنا فيروى لنا أنه قد ظهر رجل فى مدينة مجاورة يطير بغير جناحين ويحط حيث يشاء ، ويروى لنا آخر معركة يقسم أنه

شاهدها بعينيه فى سوق المدينة ، كال فيها أحد الرجال العظام اللكمات المزلزلة لعشرة من الأشرار حاولوا الاعتداء عليه ، فتصدى لهم وحده وصعقهم بضرباته المروعة . . حتى أرداهم جميعًا أرضًا وجلس إلى مقعده فى المقهى ، يدخن « شيشته » مطمئنًا . . ويرقب سيارة الإسعاف وهى تنقل ضحاياه للمستشفى لمعالجتهم من جراحهم !

ويشتعل خيالى بهذه البطولة الخارقة وأقسِم على من روى لى قصتها بأن يصطحبنى معه لرؤية هذا البطل المغوار الذى ينبغى له أن يكون المثل الأعلى لأمثالنا من الضعفاء . . ويتردد الراوى طويلاً فى الاستجابة ، غير أنه يقبل فى النهاية ، ويقودنى إلى مقهى بالشارع الرئيسى للمدينة ، ويشير إلى أحد الجالسين فيه ويقول : إنه هو الفتوة الذى أردى من اعترضوا طريقه . . وأنظر . . فأرى رجلاً نحيلاً طويلاً يرتدى جلبابًا «مقلما» ، ويصفف شعره بـ « البريانتين » ولا تبدو عليه سمات القوة أو المهابة ، لكن أسطورة البطولة تطغى على كل الشكوك . . ومن ذلك اليوم أضعه ـ بالرغم من ضعفه الجسمانى الظاهر ـ فى مكان مرموق فى خيالى ، وأدعو فى صلاتى أن يهبنى الله بعض قوته لأستخدمها فى الدفاع عن نفسى عند الحاجة ، وفى نصرة الضعفاء ضد المعتدين ، وأعاهد النفس ـ إن استجاب الله لدعائى الملهوف ـ ألا أستخدم قوتى إلا فى الخير . . غير أن الأيام تمضى دون أن يبدو أى أثر للاستجابة لهذا الابتهال الحار ، ثم أمرُّ يومًا بالمقهى فأرى ـ للدهشة ـ « البطل » جالسًا

على الأرض واضعًا يده على جنبه الأيسر ، ويبكى مولولاً ومن حوله بعض الرجال يطالبونه بالتماسك ويعيبون عليه هذا النواح الخليق بالنساء! وأقترب من الجمع محاولاً فهم ما جرى للبطل ؛ فأسمع أحد الواقفين يقول فى استياء : إنه ولد « خِـرِع » . . يبكى لبعض المغص الذى ألم به !

وتتلقى أسطورة البطولة فى خيالى ضربة قاصمة ، وتضيع آمالى فى اكتساب بعض قوة « المثل الأعلى » لتكون عُـدَّتى يوم يكون النزال !



ذات الرداء الأحمر

تمر بنا ، ونحن منهمكون فى اللعب الجماعى ، فترمقنا بفضول ، طفلة فى الثامنة من عمرها ، نتوقف عن اللعب خشية أن تصيبها الكرة التى تتقاذفها أقدامنا . . فتنظر إلينا فى امتنان صامت ويخيل إلىّ أنها تخصنى دون الرفاق بنظرتها المعبرة ، ثم تبتعد عنا فأتبعها بنظرة محرومة ، وأنا أتساءل : هل كانت نظرة عابرة أم تعبيرًا صامتًا عن تجاوب صريح مع من يخفق قلبه الصغير فى صمت كلما رآها ؟

ويتكرر مرورها بنا كل يوم . . ويتكرر إيقاف اللعب ، احترامًا للفاتنة الصغيرة التى تظهر دائمًا فى فستان أحمر اللون ، كأنها لا تملك غيره، وتتكرر النظرة التى تثير التساؤلات الحائرة فى نفسى ، دون أن أتلقى أى إشارة ترجح الآمال ، أو تخيب الظنون . . وبمضى الأيام تميل النفس المتلهفة على ما يسعدها إلى الاقتناع بـ « خصوصية » الاهتمام . . ويعرف القلب البكر نوعًا غامضًا من المشاعر لم يجربه من قبل . . ويختلف عن بقية الأحاسيس الأخرى .

وفى المساء حين أضع رأسى ، كعادتى كل ليلة ، على حجر أمى ، لأسمع الحكايات الجميلة . . وآسف كل مرة أن خطفنى النوم قبل أن أعرف نهايتها . . أجدنى على غير العادة متنبهًا لسماع الحكايات ، بغير أن يغلبنى النوم فى بداية القصة، كما كان الحال . . وأجدنى أتراوح بين الانتباه للقصة ، والشرود عنها واسترجاع صورة الفاتنة الصغيرة . . فيتساءل العقل الصغير : أيكون هذا هو « سهر » المحبين الذين يجافيهم النوم ، كما تتحدث عنه أغانى الراديو ؟! وتنطوى النفس على سرّها الخطير فلا تبوح به لأحد ، وبدلاً من أن تقرب الأيام بين الطرفين ـ كما يأمل القلب الحسير ـ تنقطع الفاتنة الصغيرة فجأة عن الظهور فى موعدها اليومى . . وأتلفت حولى باحثًا عنها ، فلا يظهر لها أثر . . وبعد معاناة صامتة طويلة اقترح على الرفاق نقل المباراة إلى الطرف الجنوبى من الشارع ، حيث يقع مسكن فتاة القلب . . ويقاوم الرفاق الفكرة طويلاً ، ثم يخضعون فى النهاية دون أن يعرفوا دوافعى السرية لهذا الاقتراح . . وأمارس اللعب فى الموقع الجديد شارد الذهن مشتت الانتباه بين واجباتى كلاعب كرة ، ومراقبة مدخل البيت الذى تقيم فيه الساحرة الصغيرة ، على أمل أن أراها خارجة منه . . وأتلقى لوم الرفاق ، لذهولى عن الخصم الذى مرق بجوارى وهدد مرمانا وأنا شارد عنه . . ويمضى وقت المباراة الطويل دون أى بادرة تطمئن القلب الحزين . . ويمضى اليوم بعد اليوم ، دون أن يجدى نقل المباراة شيئًا فى معرفة مصير ذات

الرداء الأحمر ، ثم أتجرأ ذات يوم ، فأسأل سيدة من سكان البيت عنها متذرعًا بحجة واهية . . ويجيئنى الجواب كالصدمة . . إن أسرتها قد انتقلت إلى حى آخر بعيد . . ولأيام تالية أرتاد ذلك الحى الآخر البعيد ، متلمسًا رؤية فتاة القلب فى أحد شوارعه . . فلا أجد لها أثرًا . . وأرجع من جولاتى الخائبة مكدود القلب والوجدان ، فأتعلق بالأمل الوحيد فى أن ترجع أسـرة الفتـاة ذات يوم إلى الحى القـديم ، لزيـارة جيـرانها السابقين . . لكن الأيام تمضى بلا جديد ، فيتساءل العقل الصغير : وأين الوفاء ؟ وأين الرعاية لمن كانوا شركاء فى بيت واحد ؟

ويطول « سهرى » فى المساء مستمعًا لـ « نهايات » الحكايات المألوفة كل ليلة ، ثم تضعف الذكرى بمرور الأيام . . وتبرأ الجراح شيئًا فشيئًا ويجرف النسيان كل شىء .

وتمضى الأعوام فألتحق بالمدرسة الابتدائية ، ثم أنتقل منها إلى المدرسة الإعدادية ، وأرى ذات يوم سيارة أجرة قديمة متهالكة تقف أمام منزل الخياطة فى مطلع الشارع ، وأعرف من إخوتى أن ثمة عروسًا فى بيت الخياطة تتسلم فستان زفافها الأبيض . . وأنها سوف ترتديه ، وتستكمل زينتها فى بيت الخياطة . . ثم تخرج لتركب السيارة المتهالكة إلى حفل زفافها البسيط . وأقف فى الشرفة مع الإخوة أترقب لحظة خروج العروس وانطلاق الزغاريد . . ولا يمضى وقت طويل حتى تعلن الزغاريد عن مقدم العروس ووراءها صويحباتها ، وتخرج العروس فلا أرى وجهها

المحاط برؤوس الصديقات . . لكنها تلتفت إلى الخلف ، قبل أن تركب السيارة لترد تحية صديقاتها ، فأرى وجهها لأول مرة . . وتلمع الذكرى القديمة فجأة كالبرق الخاطف ، إن عروس اليوم هى نفسها طفلة الأمس ذات الرداء الأحمر ، لم يتغير شىء كثير فى ملامح وجهها . . لكن جسمها قد نما وتفجر أنوثة وحيوية . . وأستغرق لحظات فى ذكريات الأمس البعيد . . ومشاعر خفيفة من الشجن الغامض تتسلل إلى القلب، وأشعر بشىء من الرثاء للنفس . . ليس بسبب القصة التى لم تكتمل، وإنما بسبب آخر عجيب . . هو تأملى لِقصَر الرحلة بالنسبة للفتاة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الأنوثة والزواج . . فى حين يبدو الطريق طويلاً ، وبلا نهاية ، لمن كان من الفتيان !

وينشغل كل من حولى بمتابعة موكب العروس . . ووداع الصديقات . . وأشرد أنا بعيدًا عن كل شىء . . وفى خاطرى هاتف يقول : ما أسرع ما تمضى أحداث الحياة !

موسم الابتهاج

كنا نترقب مجيئه فى موعده السنوى على أحرَّ من الجمر ، ونستطلع مقدماته وبشائره بنفس اللهفة التى يستطلع بها القوم هلال شهر رمضان استعدادًا لبدء الصوم .

فلقد كان فى المدينة الصغيرة التى نشأت فيها ساحة واسعة . . تخصص كل عام للاحتفالات المصاحبة لمولد العارف بالله سيدى إبراهيم الدسوقى ، فإلى جوار الاحتفالات الدينية ، وخيام الطرق الصوفية التى تقام فيها الأذكار وتمتد الموائد بالقرب من المسجد ، كانت هذه الساحة تختص بالجانب الترفيهى من احتفالات المولد . . وتدخل بنا كل عام إلى عالم سحرى خلاب .

ففيها تنصب فرق السيرك الأربع التى تأتى للمدينة كل سنة خيامها ، وتتلألأ أنوارها ، وتزأر وحوشها ، وتصدح فرقها الموسيقية ، وتقدم ألعابها العجيبة . . وفيها كذلك تنتشر تلك المسارح الغنائية المتواضعة

التى تقدم عروضًا للمنوعات الغنائية ، ومن أشهرها بالنسبة لنا مسرح هدى صابر ، وحمام العطار ، وحسين المليجى وغيرهم . . وإلى جوارها « تلعلع » ميكروفونات العروض السحرية القصيرة فى مسارح لا تعدو أن تكون محلات صغيرة مستأجرة كمحلات البقالة والعطارة تقام فيها منصة خشبية . . يتراص الجمهور أمامها ليشاهد العرض واقفًا . . ولا يزيد عدده على ٢٠ أو ٢٥ مشاهدًا فى كل مرة . . يدفع كل منهم قرشًا واحدًا أو قرشين ليستمتع بمشاهدة عرض لا يستغرق أكثر من ٢٠ دقيقة لأعجوبة من أعاجيب ذلك الزمان السعيد ، كالفتاة الكهربائية التى يوصل مقدم العرض التيار الكهربائى إلى جسمها أمامنا فلا تتأثر به ! . . ويضع على ذراعيها « لمبة نيون » فتضىء على الفور ! . . أو تلك الأعجوبة الأخرى التى تثير فينا ـ إلى جانب الانبهار ـ الإشفاق ، وتندى عيوننا الصغيرة بالدمع تعاطفًا معها . . وهى تلك « الرأس » البشرية الموضوعة على مائدة أمامنا ، ويكشف لنا مقدم العرض غطاء المائدة فلا نجد لها جسدًا . . ويحدثنا صاحب الرأس عن « مأساته » المؤلمة . . وكيف أنه كان ابنًا عاقًا لوالدته فغضبت عليه ودعت ربَّها أن ينتقم منه ، فقضى عليه بأن يحيا رأسًا بلا جسد ، ليكون عبرة للآخرين . . ويبلغ بنا التأثر مبلغه ونسأل صاحب الرأس : كيف يأكل وهو بلا ذراعين وكيف ينام ؟ وكيف . . وكيف ؟ . . ويجيبنا على أسئلتنا راجيًا منا ألا نغضب أبوينا لكيلا نلقى سوء المصير ، وطالبًا منا أن ندعو له بالصبر على بلواه . . ونخرج من العرض متعجبين ومتألمين ، فلا يمضى بنا العمر

طويلاً حتى ندرك أن هذه الرأس التى طالما استدرت دموعنا لم تكن سوى حيلة تستخدم فيها المرايات وخداع البصر لإيهامنا أنها بلا جسد !

ومع ذلك تبقى ذكراها أثيرة فى النفوس . . برغم الخداع وابتزاز العواطف، أو تلك الفتاة المعذبة التى يأمرها أمامنا الساحر الجبار بالدخول إلى صندوق كبير فتمتثل لأمره . . وما أن يغلقه عليها حتى يغرس فى الصندوق السيوف الباترة من كل جانب فتئن لوقعها أحشاؤنا ونحن نتخيل غرسها فى جسدها . . ثم تنتهى الفقرة بين صيحات الخوف والإشفاق بظهور الفتاة سالمة لم تسل منها قطرة دم واحدة !

أو ذلك الكائن العجيب « شيكو » المصنوع من البلاستيك على هيئة قزم . . والذى يحمله صاحبه على ذراعه ويتحاور معه ، فيرد عليه القزم بصوت غريب ، ويدير عينيه غامزًا لنا وساخرًا من بلاهة صاحبه . . ونضحك نحن من قلوبنا ونتساءل : كيف يتكلم وهو قزم من البلاستيك؟! إلى أن نكتشف بعد مرور السنين أن صاحبه هو نفسه من كان يسأل ويجيب . . مستخدمًا فى ذلك نبرة صوت باطنية لا يلحظ المشاهدون صدورها عنه !

وغير ذلك من الألعاب والعروض المثيرة . . التى تفتح أمامنا عالـمًا سحريًا غريبًا ، وتشغل فكرنا وأحاديثنا مع رفاق الشارع لفترات طويلة بعد انقضاء احتفالات المولد . .

ولقد تجولنا بإعجابنا وانبهارنا بكل الألعاب والعروض . . واستقر الانبهار حول المتعة الجامعة لكل أسباب البهجة والسرور ، وهو السيرك . . فمن قبل أن يبدأ عروضه الموسمية فى ساحة مدينتنا كنا نترقب وصوله ونستطلع أخباره من العالمين ببواطن الأمور من الكبار . . ونحزن حتى النخاع إذا قيل لنا إن إحدى فرق السيرك الأربع التى تقدم عروضها بمدينتنا كل سنة سوف تتخلف هذا العام عن الحضور . . ونسعد بالبشرى حين يزفها إلينا أحد رفاقنا الذى تقع مدرسته الابتدائية بالقرب من محطة قطار الدلتا حين يقول لنا إنه شاهد معدات أحد هذه السيركات يفرغها العمال من قطار البضائع الصغير التابع لسكة حديد الدلتا . . ونخرج من مدرستنا كل يوم بعد ذلك إلى الساحة لنستطلع الأخبار ، ونشاهد مراحل بناء السيرك وشد قوائمه وتركيب مدرجاته الخشبية ورفع خيمته الملونة فوقه . . مرحلة بعد مرحلة . . وقلوبنا تخفق تعجلاً للبهجة القريبة ، وخلال وقت قصير يكون السيرك قد اكتملت هيئته وتلألأت أنواره . . وطاف بشوارع المدينة مهرجه الأساسى سائرًا فوق قائمين طويلين خشبيين يغطيهما سرواله الطويل الملون . . فيبدو للآخرين عملاقًا طوله ٣ أمتار . . وهو يعلن عن بدء عروض السيرك العجيبة .

وكعادتنا نحن الصغار فلقد انقسمنا بعد فترة الاستكشاف الأولى لعروض فرق السيرك الأربع بين منحاز لهذا السيرك ومشجع بقوة لذاك

دون غيره من الفرق . . وكل منا يدافع عن اختياره . . ويعدد الأسباب التى تدعوه لتفضيله على غيره ، وكنت لسبب لم أدركه جيدًا وقتها من أنصار سيرك الحاج محمد على الحلو . . وأرى أنه الأحق بالإعجاب الأكبر من سيرك أخيه الحاج حسن الحلو ، أو سيرك عاكف ، أو سيرك الحاج حنفى الذى كان يثير فينا الإحساس بالرثاء له لتواضع عروضه بالمقارنة بعروض الفرق الثلاث الأخرى . . وأما لماذا فضلت أنا وبعض الرفاق الصغار سيرك الحاج محمد الحلو فلأننا قد رأينا خلال مناقشاتنا «الخطيرة» حول هذه القضية أن جزءًا أساسيًا من عوامل الجذب للجمهور التى يعتمد عليها سيرك حسن الحلو هو جمال نجمة الفرقة محاسن الحلو . . إلى جانب عرض الفيل الذى ينفرد به دون الفرق الأخرى . . فى حين يعتمد سيرك عاكف على جمال بناته وجاذبيتهن ، فى حين لا يعتمد سيرك محمد الحلو سوى على الفن وحده . . وحماس نجومه . . ومعظمهم من أبناء صاحب السيرك نفسه !

وهكذا استقر الإعجاب الخالص على هذا السيرك . . وترسخت فى الأعماق فى مرحلة مبكرة من العمر بذور إعلاء قيمة العمل المجرد والجدية فيه بغير الاعتماد على وسائل جانبية للنجاح !

فأما ليلة الذهاب إلى سيرك الحلو فإن أصداء بهجتها ما زالت تسرى فى الوجدان عند التذكر . . ومن قبل الأصيل كنا نتهيأ للمتعة الوشيكة فنتعجل الساعات لكى تنقضى ويجىء الموعد المنتظر . . وقبيل التاسعة

مساء نكون قد شققنا طريقنا فى الزحام المتجمع أمام مدخل السيرك واشترينا ـ ونحن ثلاثة من الإخوة الصغار ـ تذكرتين فقط ، ثمن كل منها ستة قروش . . فيما أذكر ، بدعوى أن أصغرنا دون السن التى تستوجب دخوله بتذكرة ثالثة ، واجتزنا الباب الذى يفصل بين عالمنا الروتينى وعالم السحر والجمال . . وسلمنا التذكرتين للعامل الواقف أمام كومة من المقاعد الخشبية فيعطينا مقعدين ، نجرهما إلى أحد البنوارات المحيطة بحلبة السيرك ، ونستشعر الرهبة حين نجد فى البنوار المجاور لنا مأمور مركز الشرطة وكبار ضباطه بملابسهم الرسمية . . وفى البنوارات الأخرى كبار أعيان المدينة ونجومها البارزين . . ونشعر بالألفة حين ندير رؤوسنا إلى المدرجات الخشبية المطلة علينا من كل جانب فنراها مزدحمة عن آخرها بأصحاب الجلاليب البيضاء . . أبناء القرى المجاورة وعمال المدينة وحرافيشها . . فهؤلاء من سوف تتضاعف بهجة الليلة بمشاغباتهم لنجم الفرقة الكوميدى قرب نهاية السهرة . .

ننظر باهتمام إلى المنصة الخشبية التى تعلو مدخل فنانى السيرك إلى الحلبة . . نترقب ظهور فرقة الموسيقى النحاسية الصغيرة التى ستصاحب العرض بعزفها ، ونطمئن إلى اقتراب المتعة حين نرى عازفيها الثلاثة قد استقروا فوق مقاعدهم وبدأوا فى تجربة الآلات . . لحظات قصيرة ثم ينفخ العازفون فى أبواقهم . . وينسال السحر والخيال أمام ناظرينا !

يا إلهى ! . . ما هذه المتعة الثمينة التى نرتوى بها ونحن نشاهد فقرات هذا العرض الساحر ؟! . . ساعات وساعات ونحن مشدودون إلى هذه الحلبة الدائرية . . نستمتع بمشاهدة الألعاب الغريبة من أكروبات . . ومشى فوق السلك . . ودوران فى الهواء قبل السقوط فى كرسى من الحديد يحمله أكبر أبناء صاحب السيرك فوق رأسه . . وترويض للأسود داخل قفص حديدى يجرى بناؤه أمامنا قبل العرض وإزالته بعده ، والحارس يطوف حول القفص شاهرًا مسدسه المخيف تحسبًا لأية مفاجأة من جانب الوحوش الضارية . . يتخلل كل ذلك فقرات لنجوم صغار فى مثل أعمارنا . . لكن هيهات أن ننجح نحن فى أداء بعض ما يؤدونه من حركات رياضية صعبة ، أو يقومون به من ركوب للدراجة ذات العجلة الواحدة ولا مقعد لها ! . . فإذا كنت قد غبطت أحدًا فى طفولتى وتمنيت لنفسى مثل ما أوتى من حظ سعيد فى الحيـاة . . فلقد كانوا هؤلاء النجوم الصغار من لاعبى السيرك بملابسهم الفضية الزاهية ، وجرأتهم على مواجهة الجمهور ، . . واستمتاعهم بتصفيقه وإعجابه . . وقد ظللت على انبهارى بهم وإكبارى لهم إلى أن رأيت بعد ذلك أحد هؤلاء النجوم الصغار يؤدى تدريبًا نهاريًا فى حلبة السـيرك ، ولمست كمَّ العذاب والمعاناة التى يتكبدها لإتقان هذه الألعاب . . وأبوه لا يتعامل معه كلما أخطأ فى حركة إلا بالعصا الموجعة التى تفجر صرخاته مع السباب الفاحش . . فحمدت الله على خلوى من المواهب ورضيت بأقدارى التى حرمتنى من تصفيق الجماهير !

كما تتخلله أيضًا فقرات لتدريب الكلاب ، وفقرات غنائية جميلة . . منها فقرة فكاهية برع فى أدائها أحد أبناء « الحلو » واسمه « حسن » . . وكان يقوم فيها بغناء أشهر الأغانى العاطفية وقتها بكلمات فكاهية تثير ضحكاتنا وإعجابنا . . ناهيك عن فقرة مهرج السيرك الذى يظهر من حين لآخر فينتزع ضحكاتنا الصافية . . وفقرة الحمار الجامح الذى يأبى أن يركبه أحد . . ويفشل عمال السيرك فى الإمساك به ، ويتطايرون أمامه قافزين فوق المتفرجين لكيلا يدهمهم فى طريقه ويصرع الجميع . . قبل أن يغادر الحلبة منتصرًا فى كبرياء !

ثم يجىء مسك الختام قرب الواحدة بعد منتصف الليل ، ويدخل عمال السيرك فيفرشون على أرضية الحلبة المتربة بساطًا رثًا لا نكاد نعرف لونه من كم التراب الذى يغطيه . . فيكون ذلك إيذانًا ببدء « الرواية » كما كنا نسميها فى ذلك الحين . . وهى مسرحية قصيرة تستغرق نحو الساعة يقوم بأدائها نجوم السيرك الذين أدوا من قبل أخطر الألعاب . . ويحل فيها هذا البساط القديم محل ستارة المسرح . . فإذا فرشت على الأرض فلقد بدأ الفصل الأول ، وإذا طويت فلقد انتهى الفصل . . وهكذا . .

ومن هذه « الرواية » سوف تتسلل إلى نفوسنا بذور حب المسرح والأدب والتاريخ . . وفيها سوف نشاهد هارون الرشيد يتداول مع وزيره جعفر البرمكى فى شئون الدولة . . قبل أن يقلب له ظهر المِجَنّ

وينكبه وينكب معه البرامكة كلُّهم . . أو نرى ملكًا مهمومًا بأمر ابنته الشابة العليلة التى عجز الأطباء عن علاجها ، وتأبى البوح بهمها لأحد، وترفض كل من يتقدم إليها طالبًا يدها لأن قلبها أسير لحب فتى أمين . . لكنه للأسف من أسرة نازعت أباها فى ملكه ذات يوم ولا أمل فى قبوله إذا هو تقدم طالبًا يدها . . وسواء أكانت أحداث الرواية تجرى فى عصر الرشيد أو فى العصور الوسطى أو الحديثة فلسوف يختار البطل الشاب الذى يقوم بدوره دائمًا أكبر أبناء صاحب السيرك ـ واسمه محمد كأبيه ـ لحظة مناسبة لكى يطلق فيها رصاصة من مسدسه فى الأرض فتنخلع لها قلوبنا الصغيرة ويتطاير شررها النارى أمام أعيننا ويثير فينا الرعب ! أما كيف يتسق تاريخيًا استخدام المسدس فى نزاع بين هارون الرشيد وأحد خصومه ولم يكن قد اخترع بعد . . فليس ذلك مما كان يعنى البطل الذى يهمه فقط أن يحقق أقصى درجة من الانفعال الدرامى بالحدث بين المشاهدين ! . . وأما الشخصية الأخرى التى لا بد من وجودها فى الرواية سواء أكانت تاريخية أو عصرية . . فهى شخصية التابع الظريف للأمير أو البطل ، والذى يصبغ وجهه ويديه باللون الأسود ويتكلم باللهجة النوبية أو السودانية ، ويمثل الفطرة الشعبية فى الإخلاص للبطل والمسالمة والتحذير من الاندفاع . . ومن خيانة المنافقين الذين يبدون أمام البطل غير ما يبطنون . . إلخ . . وحول هذه الشخصية سوف تتركز بهجة الرواية جنبًا إلى جنب مع مغزاها الأخلاقى

ودروسها المستفادة . . فمنذ اللحظة الأولى التى يظهر فيها التابع الظريف يبدأ جمهور المدرجات الخشبية من العمال والحرافيش فى مشاغبته والتعقيب على كل جملة ينطق بها بالصفير الهازل . . فيخرج عن أحداث الرواية و يوجه كلامه إلى المتفرج الساخر ، ويلذعه بنكتة أو قافية ساخرة تفجر ضحكات الجمهور من الأعماق ويكون أعلاهم ضحكًا هو هذا المتفرج نفسه ! . . ثم يرجع التابع إلى أحداث الرواية ، فما إن ينطق بعبارة أخرى حتى يلاحقه متفرج آخر بالصفير الساخر . . فيرد عليه بقفشة لاذعة . . وهكذا طوال ظهوره فى حلبة المسرح . . إلى أن يشبع الجمهور من الضحك والقفشات ويتهيأ لمتابعة ختام الرواية الأخلاقى . . فيشهد اندحار الشر ، وانتصار الخير والحب والوفاء والمثل العليا . . وينطوى بساط الرواية ، وينحنى الأبطال أمامنا ردًا على تحيتنا الحارة التى تلهب أكفنا الصغيرة . . وتدميها فى بعض الأحيان ! . . ونغادر عالم السحر والفن والجمال ونفوسنا سعيدة بانتصار الخير وهزيمة الشر . . ومترعة بالبهجة والارتواء . . ولكن يخالطها شىء من الأسى والشجن لانقضاء المتعة التى لا يجود بمثلها الزمان كثيرًا ، ولا يتاح لنا أن ننهل من نبعها سوى مرتين أو ثلاث كل عام !

اللـــون الأخضـــر

تفـرغ البنـات من ألعابهن الخاصة ، ويسأم الصبيـة منافساتهم الخشنة ، فيجتمع شمل الجميع فى دائرة واحدة ، ويتصل الحديث وتبدأ الألعاب المشتركة . . ويجمع الود بيننا وبين فريق البنات . فنشعر تجاههن بما نشعر به تجاه رفاق الشارع من الحب والثقة والمودة ، ونتصدى للدفاع عنهن إذا تعرضت إحداهن للعدوان أو الإساءة من عابر غريب ، ونلحظ بسهولة أن قانون الانتخاب الطبيعى يؤدى دوره المألوف لديهن ، فتنعقد الزعامة بينهن لكبرى البنات سنًا ويكون لها ما « لرئيس الشارع » لدينا من الغلمان من سطوة وتأثير على سائر الأتباع ، وهى سطوة طبيعية يفرضها السن والمهارة فى اللعب والقوة البدنية التى يدفع بها عنا أذى الغرباء من أبناء الشوارع الأخرى .

وبمضى الأيام تتعمق العلاقة بيننا وبين فريق البنات . . وتنال زعيمتهن أكبر قسط من حبنا ومشاعرنا ، اتساقًا مع مكانتها البارزة فى مجتمعها الأنثوى . . ثم نفاجأ ذات يوم بغياب الزعيمة عن الشلة ، واختفائها المريب من ملاعبنا ونتساءل حائرين عما يعوقها عن الانضمام

إلينا ، وقد كانت درة الشلة وواسطة العقد فيها ، ويجيئنا الجواب مضيفًا إلى حيرتنا مزيدًا من الغموض، ويقال لنا إنها قد « تخضرت » . . ولم يعد مسموحًا لها باللعب فى الشارع مع الصبيان ، ونعجب لهذه الكلمة الغريبة التى تفيد دائمًا حرماننا من صحبة كبرى البنات سنًا وأجدرهن بالحب والصداقة، ونتساءل عن سر هذه العلاقة غير المفهومة بين اللون الأخضر وبين احتجاب زعيمة فصيل البنات عنا إلى الأبد، ونسأل: لماذا لا يقال لنا فى كل مرة عن فتاة غابت عن شلتنا إنها قد « اصفرت » أو «احمرت» . . ولماذا تقال لنا دائمًا هذه الكلمة الكريهة عن الاخضرار والاحتجاب عن الرفاق المخلصين، ونسأل الأمهات عن معنى الكلمة اللعينة . . ويشرحن لنا أن الفتيات لسن كالصبيان ، وأنهن عند سن معينة ينبغى لهن أن يتوقفن عن مشاركة الأولاد اللعب فى الشارع ويقَـرْن فى بيوتهن لتعلم أشياء أخرى جديرة باهتمامهن كالطهى والحياكة وأشغال الإبرة ومساعدة الأمهات فى شئون البيوت استعدادًا لأداء دورهن الخالد فى الحياة .

ونعجب نحن لهذا المنطق « الظالم » الذى يحرم فتاة صغيرة مثلنا من متعة اللعب الجميل معنا كل يوم فى الشارع ، ونأسف كثيرًا « لظلم » الآباء والأمهات وعدوانهم الطاغى على حقوق الطفولة ، لكن أسفنا يتضاعف أكثر حين نلحظ ما طرأ على الفتاة نفسها من تغيرات غريبة بعد قليل من اختفائها عنا ، إذ نراها ذات يوم عابرة للطريق مع أمها فنتهلل لرؤيتها ونندفع إليها لنحييها بحرارة ولهفة ونسألها عن سر غيابها

عنا ، فنفاجأ ببرودها الغريب معنا وتحفظها فى الحديث إلينا ، ثم تمضى إلى طريقها سائرة فى « رزانة » كريهة غير عابئة بنا وبمشاعرنا الجريحة ، ونشعر نحن بأن خيوطنا معها قد انقطعت للأبد ، ونأسف لذلك كثيرًا ثم تشغلنا مشاغل الطفولة عن الزعيمة السابقة . . وتنضم للشلة فتيات جديدات ، ونتوجه بمشاعرنا واحترامنا للزعيمة الجديدة التى خلفت على العرش الخالى تلك التى خانت عهد الطفولة معنا ولم نعد نراها بعد ذلك إلا فى صحبة أمها . . فإن صادفناها ذات مرة . . نظرت إلينا فى تعالٍ كريه وكأنها « سيدة » تعامل أطفالاً لم يشبوا بعد عن الطوق . .

وننـدمج فى حياتنا وشئون شلتنا إلى أن نفاجأ ذات يوم آخر باختفاء الزعيمة الجديدة عن الشلة ، ونسمع من جديد تلك الكلمة العجيبة عن « الاخضرار » والاحتجاب فى البيت . .

وتحتاج العقول الصغيرة بعد ذلك إلى سنوات طويلة لكى تعرف المعنى الصحيح للكلمة ، ومغزاها الخطير ، وتفهم بعد فوات الأوان أن الوصف السليم للفتاة التى احتجبت عن ملاعبنا هو أنها قد « تخدّرت » أى دخلت خِدرها وبيتها ولم يعد مسموحًا لها بمصاحبة الصبيان فى ملاعبهم وملاهيهم ، وأن الفتاة « المخدّرة » هى تلك التى ألزمت الخِدر أو البيت وليست تلك التى أصبح لونها يميل للاخضرار !

لكن القلوب الغضة تتلقى الإشارة قبل أن تفهم العقول بوقت طويل وتدرك بحسها الفطرى أنها قد تعاملت من حيث لا تفهم مع إحدى حقائق الحياة !



الغـــربـاء

فى المدرسة الإعدادية كنا نحترس ـ نحن أبناء المدينة ـ من صداقتهم . . ولا نرحب كثيرًا بتجاوز حدود الزمالة إلى علاقة الصداقة الوثيقة معهم . . ولم يكن ذلك لعيب فيهم . . وإنما لعيب فينا نحن ، وفى مشاعرنا التى تتأذى بالفراق وتكرهه . . أما هؤلاء الذين كنا نتوخى الحذر فى الاقتراب منهم فهم أبناء الموظفين الوافدين إلى المدينة ، والذين يلتحقون بالمدرسة معنا ، فنتعرف عليهم ، ونقترب منهم ويقتربون منا . . وتتعمق مشاعر الصداقة والألفة بيننا ، ثم نذهب ذات يوم إلى المدرسة فلا نجدهم فى مقاعدهم . . ونشعر بالقلق عليهم ، فنتساءل عما ألم بهم . . ونعتزم أن نزورهم فى منازلهم ، عقب انتهاء الدراسة لنطمئن عليهم . . فما أن نتوجه إلى مساكنهم ونطرق أبوابها حتى نجدها خالية . . ونسأل الجيران عنهم ، فيقولون لنا ببساطة : إنهم قد انتقلوا ليس من المسكن القديم وحده ، وإنما من المدينة كلها ! ولا غرابة فى ذلك ، فالأب موظف بإحدى المصالح الحكومية . . ولقد جاءه أمر النقل

من مدينتنا إلى مدينة أخرى . . فما أسهل أن جمع أشياءه وشحن أثاث مسكنه فى سيارة نقل ، ثم ركب هو وزوجته إلى جوار سائق السيارة، وركب الأبناء فوق ظهرها . . وانطلق بأسرته إلى مدينة أخرى وحياة جديدة ، ونشعر نحن بالحزن لانقطاع الصداقة . . وغياب الأصدقاء . . . ونظل لأيام عديدة نترقب خطابًا من أصدقاء الأمس من مستقرهم الجديد . . فلا تجيئنا إشارة واحدة . . ويتعمق الإحساس بالغدر فى القلوب الغضة !

ولأن الحذر لا يمنع القدر . . فقد تعمقت الصداقة بينى وبين أحد هؤلاء الغرباء ونحن فى سن المشاعر الصادقة المبرأة من كل التواء . . وتشاربنا كؤوس الصداقة الصافية . . وأصبح كل منا صديق الروح بالنسبة للآخر . . نلتقى فى المدرسة قبل الدراسة وبين الحصص . . وفى الفسحة . . ونغادر المدرسة معًا ، نتحدث فى كل شىء . . أو نتوقف أمام أحد محال الفول والطعمية القريبة من المدرسة ، لنحظى بوجبة شهية قبل موعد الغداء فى البيت ، ونتفق على الموعد الأسبوعى للذهاب إلى سينما المدينة الوحيدة . . ونقف أمام المحل الصغير الواقع فى مبنى السينما، والذى ينفرد دون بقية محال المدينة ببيع الصور الصغيرة «الأبيض والأسود» للممثلين والممثلات . . مقابل قرشين لكل صورة ، فنقلّب فى مجموعة الصور كل مرة ، ويشترى كل منا صورتين أو ثلاثًا لنجومه المفضلين . . ونتبادل الحديث عن أخبارهم ، ثم نتجه إلى صالة السينما

لنستمتع بمشاهدة حلقات « زورو العجيب » أو حلقات « روكا مبول » ورعاة البقر ، قبل مشاهدة العرض الرئيسى لفيلم عربى . . وكانت العادة أن تعرض دار السينما فى كل أسبوع حلقتين من المسلسل الأجنبى الطويل . . فإذا كان ما نشاهده هو الحلقة الأولى من عرض الليلة فسوف تتوقف الحلقة عند الخطر الداهم ، والقطار يمضى بسرعة رهيبة فى اتجاه بطل الحلقات الذى قيده الأشرار ، وألقوا به على عجلات القطار لكى يدهمه . . ثم تظلم الشاشة لحظات ويبدأ عرض الحلقة التالية من اللحظة الرهيبة نفسها التى توقفت الأحداث عندها ، فنسترد نحن أنفاسنا حين يظهر صديق البطل فجأة ويلقى بنفسه على صديقه ، ويدفعه بعيدًا عن القضبان فى اللحظة نفسها التى يمرق فيها القطار فوق موقعه السابق ، أما فى الحلقة الثانية فلسوف تتوقف الأحداث عند الخطر الجديد الذى يدهم البطل . . ويكون علينا أن ننتظر أسبوعًا طويلاً لكى نطمئن على مصيره . . ونغادر دار السينما، ونحن نتساءل: كيف سينجو هذه المرة . . ومن الذى سينقذه؟! . . وفى مثل ذلك تمضى مناقشاتنا وأحاديثنا . . وتتعمق الصداقة بينى وبين الفتى ، حتى ليصبح كل منا رفيق الروح والعقل والاهتمامات المشتركة للآخر ، ثم أذهب إلى المدرسة ذات يوم فأرى صديقى مع والده فى غرفة «باشكاتب» المدرسة . . وأتساءل عما يفعل . . فأعرف أن والده قد جاء لكى

يسحب ملف ابنه من المدرسة . . لأنه قد انتقل إلى مدينة جديدة ، وسوف تغادر الأسرة مدينتنا بعد ساعات !

وأشعر بطعنة الغدر القاسية للصداقة المخلصة . . وأعاتب صديقى : كيف لم يبلغنى من قبل بقرب انتقال أسرته إلى مدينة أخرى ؟ ويدافع عن نفسه صادقًا بأنه لم يعلم بأمر النقل إلا بالأمس ، فنتعاهد على استمرار الصداقة بيننا على البعد . . وعلى أن يكتب إلىّ بعنوانه الجديد، لكى تتواصل المراسلات بيننا ، إلى أن تجمعنا ذات يوم إحدى الكليات الجامعية فى القاهرة أو الإسكندرية .

ينزف القلب نزيفه الصامت لفترة من العمر . . وتمضى الأيام بلا أى اتصال من أى نوع من جانب صديق الأمس . . فأتعلم درس التجربة ، وأقول لنفسى : لا تقع فى صداقة الغرباء فإنهم دومًا على رحيل !

ثم تدور الأيام دورتها ، ويجرف النسيان شخوص تلك المرحلة من العمر . . ويجىء يوم بعد أكثر من ثلاثين عامًا منها ، وأدخل غرفة الخزينة بالدور الرابع بمبنى « الأهرام » لأقبض مرتبى وأجد أمامى شابًا لا أعرفه يتحدث مع الصراف ، ويستعد لتسلم مكافأة مالية منه . . وأسمع الصراف يقرأ اسم الشاب الثلاثى ، ليتأكد منه . . فيرن الاسم فى أذنى رنينًا غريبًا . . وأحاول أن أتذكر أين سمعته من قبل ؟

ثم أتذكر ما غاب عنى فجأة . . وأكتشف أن هذا الشاب الذى يقترب من الأربعين هو نفسه ذلك الفتى الصغير الذى كان توءم الروح، بالنسبة لى فى سن البراءة والأحلام . . وأتقدم إليه فأصافحه . . وأذكّره بمدرسة دسوق القديمة . . وحلقات « روكا مبول » وصور الممثلين . . والرحيل المفاجىء . . فتتنبه الذكرى ويقدم لى نفسه ، ويقول لى إنه قام بعمل عارض لـ « الأهرام » استحق عليه هذه المكافأة . لكنه ليس موظفًا بها ، وإنما فى مؤسسة أخرى . . ونتبادل أرقام التليفونات والوعود بالاتصال . . ويمضى كل منا إلى حال سبيله ، وهو على يقين من أنه لن يستخدم هذه الأرقام التى دونها بحماس فى أوراقه . . لأن كل شىء يتغير إلا قانون التغير نفسه ، ولأن شخوص الأمس ليسوا هم أنفسهم أشخاص اليوم ، وإن حملوا نفس الأسماء ، أو نفس الملامح !



القـدم العـاريـة

فى سن الطفولة تختفى الحواجز . . وتتشابك الحدود ، فلا فرق بين غنى وفقير . . ولا بين ولد وفتاة ، فالجميع أطفال يلعبون ألعابهم . . ويتشاركون فى الحكايات ، ويقضون يومهم فى الجرى واللعب والحركة كأنهم يؤدون « عملاً » شاقًا لا بد لهم من أدائه بإخلاص قبل أن يرجعوا إلى أسرهم وبيوتهم مجهدين آخر النهار بعد يوم « عمل » طويل !

وفى شلة الأطفال يتشارك الصبيان والبنات فى كل الألعاب ، فلا يفترقون إلا حين تفضّل البنات ممارسة بعض الألعاب التى تميل إليها طبيعتهن ، ولا تتفق معها طبيعة الأولاد ، فيرسمن على الأرض بالطباشير عدة مستطيلات ، ويلقين عليها بقطعة من البلاط المكسور، ثم يحجلن على قدم واحدة ويدفعن هذه القطعة بالقدم الثابتة على الأرض من مستطيل إلى آخر ، وتفوز بقصب السبق منهن من تدفعها أمامها من المستطيل الأول إلى المستطيل الأخير بغير أن تفقد توازنها أو تستند بقدمها المعلقة إلى الأرض . . ونرقب نحن البنات فى لعبتهن ،

ونتساءل ماذا يغريهن فيها وهى لا تبدو لنا مسلية أو واعدة بالإثارة والمتعة، وننصرف عنهن إلى لعبة أخرى تتفق مع طبيعتنا كصبيان ، فنرسم على الأرض غير المرصوفة بنفس قطعة الطباشير دائرة صغيرة . . ونشحذ خناجرنا البدائية التى صنعناها من شظايا قطع الصاج أو الحديد التى تلقى بها إلى الطريق مخارط الحدادين القريبة منا ، ونروح نتبارى فى رشق هذه الخناجر فى الأرض . . ويفوز منا بقصب السبق من يصيب خنجره قلب الدائرة . . ويبوء بالخسران من تطيش سهامه بعيدًا عنها . .

وفى إحدى هذه المباريات اليومية ، لاحظ أحد الرفاق المتبارين أن ولدًا من المتفرجين يقف بالقرب من دائرة الهدف ، فطلب منه الابتعاد عنها لكيلا يصيب سهم طائش قدمه الحافية بالأذى ، فلم يستجب للتحذير بعناد طفولى مفهوم ، وكرر عليه الرفيق النصيحة مصحوبة هذه المرة بتحذير شديد من أنه إذا لم يبتعد بقدمه العارية عن منطقة الهدف فلسوف يرشق خنجره فيها ! ويستفز التحذير عناد المتفرج أكثر وأكثر فيجيبه بتحد عجيب : افعل . . إن كنت « رجلاً » !

فلا يزيد الرفيق عن أن يقول له ببساطة شديدة : أهوه !

ثم يرشق خنجره فى القدم العارية فيستقر بين إصبع القدم الكبرى والأصبع الذى يليه . . وينفجر الدم كالينبوع . . ويصرخ الولد ويفزع الجانى ويطلق ساقيه للريح . . وينتابنا الرعب الشديد . . ونحار فيما

نفعل والخنجر ما زال مرشوقًا فى قدم الصبى الذى يصرخ ويولول . . ونهمُّ بأن نستغيث بالكبار لينقذوا الطفل الجريح ، لكن « أشجعنا » يحسم الموقف بأن يتقدم من الطفل ، ثم ينتزع الخنجر من قدمه بقوة ترافقها صرخة مدوية من المصاب . . ثم نهرول إلى بيوتنا نطلب «الإسعاف الطبى» المألوف لنا للطفل الضحية . . فيكون الإسعاف المعتاد فى ذلك الوقت هو كمية كبيرة من البن نرجع بها من البيت و «نكبس» بها جرح الصبى النازف ، فيتوقف النزيف بعد حين ، وتتوقف دموعه أيضًا . . ثم نجلس إلى جواره نشد من أزره ونهون عليه المصاب ونلومه على عناده الذى أورده موارد التهلكة ، ومن بعيد يتراءى لنا وجه الصبى الجانى ممتقعًا وشاحبًا ، ويتردد هو فى الاقتراب منا تحسبًا لما قد يناله من أذى أبوى الطفل حين يعلمان بالحقيقة . فننهض نحن بحماس الأطفال المعهود لتسوية الموقف ، ونحث الصبى الجريح على العفو عن رفيق اللعب ، حرصًا على أواصر المودة والصداقة و «الرجولة» التى تجمع بيننا . . ونتكاثر عليه . . فلا يرد رجاءنا ببراءة الأطفال وعجزهم عن أن يحملوا حقدًا لأحد ، ويومىء برأسه بعد قليل موافقًا على الصلح المنشود ، ونشير نحن للجانى الواقف بعيدًا بإشارة الأمان . . فيقترب بحذر . . إلى أن يدنو من دائرتنا فيقول موجهًا تساؤله إلى ضحيته فى رجاء :

ـ « صافية » يا لبن ؟

فيجيبه الصبى بتأثير نظراتنا المشجعة بصوته الرفيع : حليب يا قشطة!

فيقترب منه مادًا إليه إصبعيه السبابة والوسطى وضامًا باقى أصابعه فيمد إليه المجنى عليه سبابته ووسطاه بنفس الطريقة . . وتتلامس الأصابع علامة على الصلح وعودة الوفاق ، ثم يرفع كل منهما إصبعيه إلى فمه فيلثمهما . . ثم يلمس بهما جبهته . . ويهلل الرفاق فرحًا بعودة الوئام ، ويقترب الجانى من ضحيته فيقبل رأسه . . وينهض الصغار لمعاودة اللعب وكأنما لم يقع شيء يعكر صفو الحياة . . ولأيام بعدها «يحجل» بيننا ذلك الصبى بقدمه المصابة الملفوفة برباط متسخ . . مستمتعًا بنظرات « الإكبار » التى تحيط به من الرفاق « لرجولته » . . التى تجلت عند الاختبار حيث تكتم حقيقة أمر إصابته عن أبويه وزعم لهما أنه قد جرح نفسه بخنجره على سبيل الخطأ ، لكى يحمى رفيق اللعب من بطش الكبار ، وترجع المياه إلى مجاريها السابقة بين الصغار صافية بنقاء القلوب الغضة . . واستعدادها الفطرى للنسيان . . فطوبى لأيام البراءة والمشاعر الطاهرة . . وطوبى لأيام السعادة المبرأة من كل الأوزار .

العصر الذهبى

فى المدرسة . . يتبارى الصغار فى الفوز برضا المدرسين وتجنب غضبهم وعقابهم . . وبالرغم من الجِدِّ والاجتهاد فلا أحد من تلاميذ فصلى ينال بعض المكانة التى يحظى بها « ألفة » الفصل ـ أو أوله فى الترتيب الدراسى ـ . . ابن عامل السكة الحديد « تميم » . . فهو « حبة عين » مدرسى الفصل جميعًا ، ومهما بذلنا من جهد وعطاء فهو المفضل لديهم بلا مراء ، وهو الوحيد الذى يخصه « فهيم أفندى » مدرسنا بالرعاية والإيثار ، ونبذل غاية الجهد للتفوق ونيل الرضا السامى فلا تكون غاية جهدنا إلا النجاة من اللوم والعقاب ، ويظل التفضيل والتمييز دائمًـا لـ « تميم » ومن بعده لذلك التلميذ ذى الاسم الغريب «وكيل» حتى ضاق بعضنا بهـذه التفرقة فأطلق دعابة تقول : إن « تميم » و « وكيله » هما سادة الفصل بلا منازع !

وتمضى الأيام فى دورتها المحتومة . . ثم أجدنى ذات يوم فى قطار الديزل المنطلق من القاهرة إلى الإسكندرية ، ويقترب منى كمسارى

القطار فألاحظ على البُعد تجهمه وتعامله الجاف مع الركاب ، فأتهيأ نفسيًا للتعامل مع تحفظه ، فما أن يقترب منى حتى تدوى فى الذاكرة أصداء الذكريات البعيدة . . وأتذكر « أَلْفَة » الفصل و « دلوعة » الأساتذة المفضل . . « تميم » ! وأتعجب لهذا المصير الذى انتهى إليه نجم الدراسة القديم ، ويقترب منى فأسأله عن اسمه ، فينظر إلَىَّ متجهمًـا ومتشككًا ، ثم يجيبنى فى تحفظ على السؤال . . فتتأكد الظنون . . وأعـرِّفه بنفسى وأذكِّره بأننى كنت زميلاً له بالسنة الثالثة بمدرسة النجاح الابتدائية فى الزمن البعيد . . فترق ملامحه بعض الشىء . . ويتذكر أسماء المدرسين القدامى . . واسم « وصيفه » السابق فى الفصل الذى عرفت منه للعجب أنه قد انتهى أيضًا كمساريًا بالسكة الحديد! لكنه لا يتذكرنى ولا يتذكر اسمى بالرغم من المحاولة ، ولا أعجب لذلك حين يودعنى منصرفًا عنى إلى غيرى ، إذ كيف «للنجوم» أن يتذكروا غمار التلاميذ وآحادَ البشر فى عصورهم الذهبية السابقة ؟!

الصــورة الغـائمــة

.. صورته غائمة فى مخيلتى .. أنجح أحيانًا فى استرجاع بعض معالمها .. وأفشل فى أحيان أخرى !

يخيل إلىّ أننى أتذكر ملامح وجهه الوسيم .. ويخيل إلىّ فى أحيان أخرى أن ما أتذكره منه ليس سوى سراب خادع ضاع معظم أثره فى غمار الأيام .. تعى ذاكرتى الطفولية منه صورة « أفندى » من « أفندية » الزمن القديم .. يرتدى البدلة والطربوش ويصفف شعره بـ « البريانتين » .. ينام فى غرفة منفردة صغيرة فى مدخل البيت القديم بالدور الأرضى .. ينهض من نومه فى الظهر فيدخل الحمام .. ويصعد إلى الدور العلوى ، وهو مازال فى بيجامته المخططة بالخطوط الطولية العريضة ، فيعابث كل من يلتقى به فى طريقه من أبناء أخيه وشغالات الأسرة ، ويحيّى زوجة الأخ باسما ، فترد عليه تحيته بحبور ، وتأتيه بالإفطار والشاى .. فيجلس فى شرفة البيت الخشبية المسقوفة ، كأنها قفص كبير تتخلله أشعة الشمس من فتحات الشرائط الخشبية المتقاطعة التى تكسو نصفها

العلوى ، فترسم مربعات ومثلثات ذهبية بهيجة على أرضية الشرفة . يقرأ الصحف التى تختلف عن صحيفة رب الدار الوقور ، التى لا يقرأ سواها وهى « الأهرام » . . ينثر المرح حوله أينما حل . . يشاكس أمه - جدتى - المعتصمة غالبًا بحجرتها تشرب الشاى والقهوة وتأكل الملبن لملاءمته لأسنانها المخلوعة التى تحتفظ بها فى علبة معدنية وتعرضها علىَّ من حين لآخر وهى تتأسف لما قضى به الزمن !

يفتح الراديو الخشبى الكبير الذى يحمله رف عال فى حائط الصالة . . ويغطيه فى أوقات توقف الإذاعة كساء أبيض نظيف .

. يستمع إلى أسطوانات الأغانى الشهيرة فى ذلك الزمن السعيد فى موعد إذاعتها اليومى - من الثانية حتى الثانية والنصف - . . موعد إذاعة نشرة الأخبار . يشبع فضولى وعجبى من هذا الصندوق السحرى الذى يحمل إلينا الأصوات والغناء بديلاً للأغانى التى لا نسمعها إلا من مطربى «العوالم» كلما تزوجت إحدى فتيات الأهل ، فيعابثنى . . مؤكدًا لى أن المطربين والمذيعين « يقيمون » داخل هذا الصندوق ، ويحرمون أنفسهم من كل متع الحياة لكى يسعدونا بأغانيهم وموسيقاهم . . وأنهم ينصرفون ليلاً إلى بيوتهم وأسرهم ونحن نيام ! . . فأقاوم النوم أيامًا طويلة لكى «أضبطهم » عند خروجهم ، وأحاول جاهدًا الاستيقاظ مبكرًا قبل الفجر لأراهم عند دخولهم إليه . . فتطيش كل محاولاتى فى الهـواء !

ويواصل عبثه ومشاكساته للجميع . . إلى أن يسمع طرقات الباب فى الثالثة بعد الظهر . . وتعلن إحدى سيدات الأسرة وصول أبى من تجارته لطعام الغداء . . فيختفى العبث والضجيج فجأة ، ويحل الصمت والترقب ، وتكتسى ملامح العم الشاب بالجدية والهدوء ، ويلتف الجميع حول الطعام فى صالة البيت ، فلا يُسمع للعم المشاكس صوت . . ولا يجيب على سؤال لأبى إذا وجه إليه الحديث إلا بصوت رزين خفيض . . وأمى وشقيقتى الكبرى تتبادلان النظرات الضاحكة الصامتة تعجبًا من هذا « الأدب المباغت » الذى حل على العم الشاب ! إلى أن يفرغ أبى من طعامه ، ويكون دائمًا أول من يغادره إلى الحمام ، ثم إلى غرفته لينام بعض الوقت . . فيتخلص المجلس على الفور من تحفظه . . ويتنفس العم المشاغب الصعداء . . ويرجع لمشاغباته ومعاكساته ، ويبدأ جديًا فى تناول غدائه ، الذى حال تحفظه أمام أخيه دون أن يتناوله بحريته !

ثم يحتسى الشاى وينزل إلى غرفته ، فيرتدى ملابسه ، ويقضى وقتًا طويلاً فى التأنق وربط تلك « الربطة » العجيبة التى « يخنق » بها نفسه . . وتتدلى بألوانها المزركشة فوق قميصه ، ثم يضع طربوشه المائل فوق رأسه ، وينفث بعض « نفثات » من الكولونيا فى وجهه . . ويخرج إلى نزهته اليومية . . فيلتقى بأقرانه من شباب المدينة . . أو يزور أخاه الأوسط فى تجارته ، فيجلس أمامها بين كوكبة من أعيان المدينة وكبار

موظفيها يتحدثون فى السياسة والأحوال الجارية ، ويرجع فى نهاية السهرة إلى غرفته المنفردة وحيدًا وقد نام كل أفراد الأسرة ، فيهجع إلى مخدعه ويمضى يوم آخر من أيامه !

أتساءل فى حيرتى : ماذا يفعل عمى الشاب بحياته ؟! وماذا يعمل؟! فلا أسمع سوى إجابات غامضة ومصمصات للشفاه من أمى وجدتى . .

أرقب حياته فأرى فيها مثالاً « نموذجيًّا » للحياة التى أتطلع إليها فى المستقبل . . نومًا طويلاً ، بلا استيقاظ كريه فى الصباح المبكر للذهاب إلى المدرسة أو العمل . . وفراغًا سعيدًا لا يفسده التزام بوظيفة أو عمل . . وصحبة راقية فى الأصيل لأشخاص من الطبقة الراقية . . وملابس عصرية تزدان بربطة العنق العجيبة . . وطربوش أنيق يشى ميله إلى أحد جانبى الرأس « بشبابية » صاحبه وعصريته ! . . فأى حياة أفضل من مثل هذه الحياة ؟!

فى إحدى نزهاته المسائية يصطحبنى للخروج معه . . فألبى الدعوة سعيدًا ومبتهجًا . . يمضى فى شوارع المدينة الصغيرة ، وينحرف يمينًا ويسارًا ، ثم يدخل بيتًا يبدو لى كالقلعة الحصينة ، لأنه محاط بسور متوسط الارتفاع ـ وبيوتنا كما نعرفها لا تحيط بها أسوار ـ . . يجلس على بابه الحديدى بواب ، ينهض تحية لعمى الشاب ، فأزداد اعتزازًا به وافتخارًا ، ثم يتجه ـ وأنا معه ـ إلى « فراندة » واسعة بالدور الأرضى

يجلس بها بعض الرجال فيحييهم ويردون تحيته ، ويجلس إلى جوارهم ويتبادل معهم الحديث . . ثم يأتى رجل بصينية محملة بأكواب عديدة من « القرفة » فيطوف بها على الحاضرين ويقف أمامى ، فيتحلَّب ريقى . . لكنى أتجمد فى موقعى رافضًا مد يدى إلى الصينية ، إلى أن يشير لى عمى فأحتسى القرفة الساخنة فى حبور .

تتردد فى أحاديث الرجال أمامى أسماء غريبة كالنحاس والنقراشى وأحمد ماهر ومكرم عبيد . . وأسأل عمى فى همس عمن يكون صاحب هذه القلعة من بين هؤلاء الرجال الجالسين فى الفراندة . . فيجيبنى فى همس : إنه ليس من بينهم ولا بالمدينة كلها هذا اليوم . . فيزداد عجبى لهذا الرجل الغامض ، الذى يفتح بيته للغرباء فى غيبته ويقدم لهم القرفة فيجلسون على راحتهم فى شرفته يتحدثون فى السياسة وكأنهم فى ناد اجتماعى أو مقهى عام !

وأعرف ـ بعد فوات الأوان ! ـ أن البيت بيت مرشح الدائرة عن الحزب السعدى القديم ، وأن الموسم موسم انتخابات تتحول خلاله الدار إلى منتدى عام يؤمه من يشاء فى أى وقت ، فيجد الترحيب ، والمناقشات الحامية حول مستقبل البلاد . . وترتبط فى ذاكرتى الصغيرة كلمة « السياسة » بالقرفة المجانية . . ومناقشات الرجال المتجهمين حتى زمن بعيد . . وأحفظ اسم هذا المرشح الكريم الذى يفتح بيته للغرباء ، وأتتبع مسيرته فى الانتخابات لأطمئن إلى أن قرفته الساخنة لم تذهب

هباءً! . . فأعرف أحيانًا أنه قد نجح فى الانتخابات وأصبح نائب الدائرة . . وأعرف فى فترات أخرى أنه لم يحالفه التوفيق . . وتحتفظ له ذاكرتى بذكرى عجيبة شعرت لـه خلالها بالأسى وبعض الخجل ! . . إذ أهب من نومى مذعورًا ذات ليلة خلال معركة الانتخابات الأخيرة التى سبقت قيام ثورة يوليو ، على أصوات صاخبة تهز أرجاء المدينة ، وأخرج إلى الشرفة فأرى فى شارع المدينة الرئيسى « جنازة » حارة يسير فيها الآلاف بعد منتصف الليل . . يحملون نعشًا خاليًا . . ويهدرون فى صوت واحد متسائلين : من الذى مات ؟

ويجيبون على سؤالهم بصوت كالرعد : فلان الفلانى !

« وهو نفس المرشح الغامض » الذى شربت القرفة فى بيته قبل سنوات . . فيكون ذلك إعلانًا بظهور نتيجة الانتخابات وسقوطه سقوطًا مدويًا أمام المرشح الوفدى ! وأتعلم فى سن مبكرة أن السياسة لا تؤثر فيها « القرفة » ولا العواطف والمجاملات الشخصية !

أما العم الشاب فيعيش حياته فى دعة . . ويواصل مشاكساته لأمه وزوجة أخيه وأبنائه بلا توقف ، ومن حين لآخر يختفى من البيت لفترات تطول أو تقصر ، فأفتقده حين يغيب ، وأسعد بعودته حين يرجع . . وأتساءل عن سبب الغياب ، فأسمع كلمات مقتضبة عن « المصحة » . . والقاهرة . . ومغانى العاصمة . . وأعرف فى أحيان أخرى أنه قد سافر للقاهرة على غير إرادة أخيه ـ أبى ـ وأمه . . وتكون أسفاره المتقطعة

سببًا جديدًا من أسباب الصدام بينه وبين جدتى . . ويعجز عقلى الصغير عن فهم أسباب الخلاف ، لكنى « أفهم » شيئًا واحدًا هو أن جدتى هذه « تكره » ابنها ، بدليل أنها تدعو عليه بالموت كلما أغضبها فى شىء أو رغب فى السفر للقاهرة على غير إرادتها وإرادة أبى . . غير أن الحياة سرعان ما تلقننى درسًا جديدًا من دروسها القاسية ، إذ أرجع من مدرستى ذات يوم فألحظ الوجوم والاضطراب يسودان البيت ، وأرى شقيقتى الكبرى دامعة العين ومضطربة فى مطبخ البيت ، وصديقة شابة لها تحاول أن تخفف عنها اضطرابها . . وتخرق أذنى عبارة هامسة تفسر بها أختى لصديقتها سر اضطرابها ، وهو أن « عمى يموت » !

وأقف ذاهلاً وعاجزًا أمام هذه الحقيقة المؤلمة . .

وتمضى الأحداث فى طريقها المرسوم !

ويمتلىء البيت بالسيدات المتشحات بالسواد . .

وتبعدنا أمى إلى بيت جدتى لأمى مع الصغار لأيام . .

وأرجع إلى البيت فأرى الصمت والحزن يخيمان عليه . . وأرى الراديو الكبير متشحًا بغطائه على الدوام . . ولأيام طويلة أصحو من نومى مفزوعًا على عويل جدتى على ابنها الشاب ودموعها الغزيرة عليه .

وأتعجب فيما بينى وبين نفسى لهذا الحزن الطاغى عليه ، وقد كنت أظنها تكرهه وتتمنى له الموت ، كما كان ينطق لسانها فى فترات الخلاف !

وأعرف فى وقت مبكر ـ وبالتجربة المؤلمة ـ أن « لسان » الأمهات لا يعبر دائمًا عما فى قلوبهن تجاه أبنائهن . . فلا أعول بعد ذلك كثيرًا على أية كلمة أو عبارة تصدر من أم بشأن ابنها وهى تتشكى منه أو تزعم غضبها عليه ، وأمنيتها له أن « يفرمه » ترام القاهرة ـ كما كانت تقول جدتى فى ذروة غضبها على ابنها ـ . .

وأكتشف ـ بعد فوات الأوان ـ سر بطالة عمى الشاب هذا . . وسر غضب أبى وجدتى منه كلما سافر للقاهرة أو غاب عن البيت . . فلقد كان الشاب الضاحك الساخر مصدورًا منذ سنوات ، وتمكن المرض منه وهو مقيم بالقاهرة يعمل ببعض الوظائف . . فرأى له أبى ـ بتشجيع من جدتى ـ أن يهجر العمل ويرجع إلى بيت الأسرة حيث ينعم بالراحة والرعاية والتغذية الجيدة . . على أمل أن تتحسن صحته ذات يوم . . فكان يستجيب لنداء الحكمة ويرجع للاستقرار فى بيت الأسرة بلا عمل لبعض الفترات . . ويستجيب فى أحيان أخرى لنداء القاهرة ونزوات الشباب ، فيغيب عن البيت بعض الوقت ، ويرجع بعد أن تنفد نقوده . . وتتهالك صحته . . فيستقر فى رعاية الأسرة لفترات أخرى . .

وما بين نداء الراحة . . ونداء الشباب . . مضت حياته القصيرة ، إلى أن انطوت صفحتها ذات يوم بعيد . . مخلفة فى ذاكرتى هذه الصورة الغائمة عنه !

رسائل الغرام

شكرية . . فتاة صغيرة من فتيات شارعنا توحى ظروفها العائلية بأجواء مأساوية غامضة لا تدرك عقولنا الصغيرة كنهها ، غير أننا نعرف عنها أنها يتيمة الأب منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، وتعيش مع أمها الأرملة فى كنف جدها لأبيها ، وسط عدد من الأعمام وأبنائهم الصغار ، وعلى خلاف غيرها من بنات الشارع نلمح دائمًا نظرة الانكسار فى عينيها ، بالرغم من حدب الجد والأعمام والأم عليها ، تلعب مع أبناء أعمامها وصغار الشارع ، فنلمح الغيرة فى عيون بعض قرنائها من أبناء العم ، إذا اقتربت من أحد أو اقترب منها أحد ، وتتنبه حاسة الصغار المرهفة بسوء الظن ، فنخترع البراهين على أن أحد هؤلاء الأبناء يرتبط بها عاطفيًا ، وينتظر الوقت المناسب لطلب يدها من أبيه أو جدها ، أما شكرية نفسها فلا نشعر نحن بتفضيلها لأحد أبناء العم على غيره ، ولا بقربها الخاص من أحد الصغار ، وتمضى السنون فى طريقها المعهود ، وتدخل الفتاة طور الأنوثة فتستشعر أمها الحرج من استمرار حياة الابنة المشتركة

مع فتية من نفس عمرها تحت سقف واحد ، وتطلب الاستقلال بمعيشتها مع ابنتها فى مسكن خاص وتصر على مطلبها حتى يتحقق .

وتبدأ الفتاة مرحلة جديدة من حياتها . . وتقيم بشقة مستقلة مع أمها فى شارعنا ، وننشغل نحن عنها بحياتنا وشجوننا ، فلا يمنعنا ذلك من تسقط أخبارها من حين لآخر ، فنعرف أن القلب البكر قد خفق لفتى من أسرة فقيرة ، راح يلاحقها كل صباح وهى فى طريقها إلى المدرسة الثانوية حتى استجاب لندائه وبادله الحب والاهتمام ، وفى كل صباح يترصدها الفتى عند منعطف الطريق فتلتقى العيون فى نظرة مترعة . . وقد تسمح الظروف باستراق فرصة خاطفة تتلامس فيها الأيدي وسط زحام المارة . . فتنتقل ورقة مطوية صغيرة من يد إلى يد ، ثم يمضى كل منهما فى طريقه ، ويفتح ورقته المطوية فيقرأ بعض الكلمات العاطفية المنقولة غالبًا من كتاب أصفر صغير كان متداولاً بين الفتية فى ذلك الحين اسمه « رسائل الغرام » ، وبالرغم من ذلك فالمشاعر غضة . . والحب عفيف . . والصلة لا تتجاوز هذه النظرات المتبادلة ، وهذه الأوراق المطوية . . والإيمان صادق بأنه :

« قد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن ألا تلاقيا »

كما قال أبو تمام . . وفى عالمنا الذى لا تخفى عليه الأسرار ندرك أن

القلب قد اختار طريقه فنحترم اختياره . . ويكف المتطلعون إلى كسب المودة عن محاولاتهم . . غير أننا لدوافع غير مفهومة نسعى إلى رؤية الفتى، والاقتراب منه كأننا نحاول أن نستكشف مزاياه التى غزت قلعة حصينة تحطمت أمامها محاولات كثيرين من قبل ، فلا يكشف لنا الاقتراب منه عن شىء خارق فى شخصيته أو ظروفه . . وإنما هو «القلب قد أمر» . . فنتلقى أولى خبراتنا الثمينة فى هذا المجال المحفوف بالتحفظ والأستار ، ثم ندرك بعد حين أن الرحلة فى مياه هذا النهر ليست دائمًا نزهة سعيدة تحت ظلال القمر ، وإنما لها أيضًا عناؤها ومعاناتها حتى لينطبق على أطرافها فى بعض الأحيان ما قاله المتنبى ذات يوم : إنى بما أنا باك منه محسود !

فلقد تجهمت السماء بعد حين فى دنيا الحبيبين وترامت الأنباء إلى الأسماع بأن الفتى قد تطلع إلى الارتباط بفتاته بعد أن يحصل على شهادته المتوسطة ، وفاتح أباه البسيط فى ذلك فرق له قلبه ، وسعى إلى عم الفتاة مستكشفًا الطريق فرده ردًا عنيفًا ، وأكد له استحالة تحقق هذا الخيال ذات يوم بالنظر إلى ظروفه الاجتماعية غير الملائمة وللفوارق العائلية التى رآها العم كبيرة بينه وبين الرجل ، ثم استدار العم إلى ابنة أخيه فعنفها وعنف أمها بشدة ، وحجبها عن الذهاب للمدرسة لبعض الوقت، مؤملاً أن يدفعها ذلك لإعادة النظر فى موقفها من الفتى قبل أن يسمح لها باستئناف الدراسة ، فإذا بالفتاة تسقط فريسة لمرض غامض لا يدرى

أحد كنهه ، ويعجز الأطباء أمامه ، فتمضى الأيام وهى مستسلمة للفـراش عازفـة عن الكلام والطعام والحـركة ، وتنتابها ذات مـرة نـوبـة عصبية شديدة فتهرول إلى شرفة المسكن باكية وهى تهتف باسم الفتى المنشود عدة مرات ، وأمها تغالبها وسط دموعها وتحاول السيطرة عليها خوفًا من أن تلقى بنفسها من الشرفة ، ويشهد الجيران هذا المشهد الباكى فيتبادلون النظرات المعبرة والمشفقة . . ويتحفظ الكبار فى الحديث عن الأمر أمام الصغار لكيلا يفتحوا عيونهم على أسرار الحياة التى لم يحن الوقت الملائم بعد لاطلاعهم عليها ، ويشاركهم الصغار التحفظ والتجاهل . . وإن كانت عقولهم الصغيرة تدرك من الموقف بعض ما لا يدركه هـؤلاء الكبار ، وآذانهم تسمع عنـه بعض مـا لا يسمعونـه .

وينتهى مشهد الشرفة بنجاح الأم بعد عناء شديد فى السيطرة على الفتاة المهتاجة وإعادتها إلى داخل الشقة ، وتخمد العاصفة بعد ذلك فلا يسمع أحد للفتاة صوتًا ولا نحيبًا . . ولا تخرج فى نفس الوقت لاستئناف دراستها ، وينزوى الفتى مستسلمًا لليأس . ويتراجع الاهتمام بالقصة وسط مشاغل الحياة ، غير أن الشارع يصحو ذات يوم على صراخ موجع صادر عن مسكن الأرملة وابنتها ، ويفزع السكان إلى نوافذ البيوت وشرفاتها ، فإذا بالأم الحسيرة تنعى للجميع ابنتها الوحيدة . . وينفجر الخبر فى الشارع كالقنبلة ، وتكتئب الوجوه شفقة وتعاطفًا . . وتندى

العيون بالدمع فى الشرفات ، ويتعجب كثيرون لوفاة الفتاة التى لم تبلغ سن السابعة عشرة بعد ، ويتساءلون متحسرين : ترى أماتت من وطأة الحرمان من الحب على جسدها الضعيف . . أم ماتت بمرض غامض لم يحسن الأطباء تشخيصه فى الوقت المناسب ، ولم يعالجوها منه العلاج الشـافى ؟

وتظل الأسئلة معلقة فى سماء الحيرة سنوات طويلة ، لكن شكرية تدخل منذ ذلك الحين التاريخ العاطفى لشارعنا كبطلة مأساوية من بطلات الحب فى هذا الزمن البعيد . . وتصمد ذكراها كرمز عجيب للحب والحرمان قرأنا مثالاً له فيما بعد فى مأساة شكسبير الشهيرة عن روميو وجولييت .



انكسار الأحلام

على طريقة «أنور وجدى» . . كان يصفف شعره ويدهنه بـ«الفازلين» اللامع ! وكبعض سكان الجنوب فى شارعنا . . كان يسكن بيتًا «ميكروسكوبيًا» تظن حين تراه أنه قد بنى كـ « نموذج » للعرض فى معارض التسويق لمشروعات الإسكان . . وليس للإقامة فيه ! فمساحة الأرض التى أقيم عليها لا تتجاوز بأية حال ثلاثين مترًا . . وبالرغم من ذلك فهو « بيت » من دورين ، يحفظ للأسرة كيانها واستقرارها ، وتزهو بملكيتها له ، ويرفعها درجة عن غيرها من أسر البسطاء التى تستأجر مقر مسكنها ! . . ولقد دخلته فى مناسبة احتفال الأسرة بفرح الابنة الكبرى الجميلة وأنا طفل صغير ، فوجدت دوره الأرضى عبارة عن باحة صغيرة لا تضم سوى المرافق ، ودوره العلوى لا يضم سوى باحة مماثلة تستخدم كغرفة نوم ومعيشة . . وفى هذه الغرفة جلست العروس الجميلة فى فستان زفاف بسيط . . واصطف أمامها المدعوون فى ثلاثة صفوف من المقاعد . . وراح الأطفال يجرون فى كل مكان . . وفى أحد الجوانب

جلست « الفرقة الفنية » التى تحيى الفرح . . وكانت مكونة من عازف على بيانو صغير الحجم ، وعازف للإيقاع وآخر للترومبا ـ أو البوق النحاسى ـ . . أما نجمة الفرقة فهى « عالمة » ترقص وتغنى وتجمع النقوط فى منديل . . فغنى عازف البيانو « يا حاسدين الناس » ، وألقى عازف الإيقاع بضعة منولوجات . . وكانت مفاجأة الحفل هى غناء «الأستاذ» بضع أغان عاطفية بصوت لا بأس به !

أما « الأستاذ » فهو شقيق العروس المحتفى بها ، ونجم من نجوم الشارع الذين يشار إليهم بالبنان . . ولقد كان موعـودًا بالمجـد والشهرة كمطرب ، وربما كنجم من نجوم السينما . . لولا حادث صغير حوَّل مجرى حياته !

فلطالما راود الأستاذ الحلم بأن يكرر قصة مطرب معروف من أبناء المدينة . . سافر إلى القاهرة وهو فتى صغير ، وساعده نائب الدائرة الوفدى على التقدم للإذاعة فاعتمدته مطربًا وسجلت له بعض الأغاني . . وشق طريقه بعد ذلك فى الأفراح والحفلات . . فلماذا لا يكرر « الأستاذ » سيرته ، وهو الذى يتميز عنه بشىء من الوسامة والشعر الغزير المصفف إلى الوراء . . فضلاً عن صوت يراه هو جميلاً ساحرًا ، ويراه السامعون مقبولاً . . أو شبه مقبول !

وهكذا سيطر عليه حلم السفر للقاهرة والتقدم للإذاعة . . وأعجزته الإمكانات المادية ، فراح يدخر القرش على القرش ليتمكن ذات يوم من

توفير نفقات السفر والإقامة فى القاهرة ومواجهة صعوبات البداية إلى أن يتحقق النجاح ويتدفق المال . . وفى سبيل ذلك راح يغنى فى الأفراح لقاء قروش قليلة ، ويلتقط الرزق عن طريق العمل كعازف إيقاع كلما أتيح له ذلك . . محافظًا فى الوقت نفسه على سمت الفنان الموعود بالمجد والشهرة . . فيمشى فى الشارع فى وقار ، منتعلاً « الشبشب » ، وحاملاً طبقًا فارغًا لشراء « الفول » ويُـحـيِّى معارفه خلال الطريق بابتسامة مهذبة . . وتحية متزنة . . ويرجع إلى البيت حاملاً الطبق المملوء وهو يدندن لنفسه بكلمات أغنية ويهز رأسه فى جلال مع النغمات . . إلى أن تمكن بعد عدة سنوات من توفير بضعة جنيهات ، فاصطحب صديقًا له وركب القطار إلى القاهرة ليقتحمها بموهبته الفنية ويفرض اسمه عليها ! . .

فلم تمض سوى أيام قليلة حتى شهدته بالمدينة الصغيرة عائدًا إليها مع زميله مخفورًا والقيود فى يديه ! وتسربت الأنباء ، فعرف المهتمون بأخباره أنه قد عجز عن دخول الإذاعة بالرغم من محاولته أكثر من مرة ، ونفدت نقوده القليلة . . فراح يبيت مع صديقه فى حديقة الأزبكية متمسكًا بالأمل فى انصلاح الأحوال . . فاشتبهت فيه الشرطة هو وصديقه ، وألقت القبض عليهما بتهمة التشرد ، ولم تجد معهما ما يثبت شخصيتهما فأعادتهما مخفورين إلى مركز شرطة المدينة للتحرى عنهما ، ومعرفة ما إذا كانا هاربين من جريمة أو مطلوبين للقضاء فى بعض الجرائم ! . .

وكان الدرس قاسيًا . . فعزف الأستاذ عن حلم اقتحام القاهرة مرة أخرى ، ورضى بواقعه البسيط ، واكتفى من أحلام المجد الغابر بالعمل كعازف إيقـاع ومطـرب « محلى » فى الأفراح كلما وجد إلى ذلك سبيلا . . و «توسع» مع تقدم العمر فى نشاطه « الفنى » ، فأضاف إليه الاتجار فى الطبول والدفوف أو تأجيرها للراغبين لقاء قروش زهيدة .

ولم يفقد أبدًا ـ بالرغم من ذلك ـ جلال الفنان . . ولا وقاره . . والتصق به إلى النهاية لقب « الأستاذ » بالرغم من بساطة الحال . . وبقيت لى من ذكرياته ذكرى صورة خيالية غريبة ارتسمت فى ذهنى ، حين سمعته يغنى فى فرح شقيقته أغنية تقول :

جانا النصر جانا . . جانا والله جانا . . جانا النصر بسيفه الماضى . . يفتح لنا كل الأبواب !

فإذا بخيالى الطفولى يترجم هذه الكلمات ترجمة عجيبة . . ويتمثل النصر فى ذهنى كرجل يمسك سيفًا ينهال به على أقفال أبواب المحال التجارية المغلقة فى الليل فيفتحها ! ولم تسعفنى مداركى وقتها لتخيل أية « أبواب » أخرى يمكن لسيف النصر هذا أن يفتحها سوى أبواب المحال التجارية المغلقة !

وتمضى سنوات من العمر قبل أن أفهم بعض تأثير البيئة التى ينشأ فيها الطفل على مداركه وتخيلاته ، والرموز التى يراها منطقية تمامًا من وجهة نظـره !

فى القطـــار

أخرج من البيت مبتهجًا فى صحبة أبى فى غبشة الفجر ، والدنيا مازالت نائمة . . فاليوم هو اليوم الموعود الذى ظللت أنتظره فى لهفة منذ بدأت الإجازة الصيفية ، وبعد طول انتظار جاء موعد سفر أبى إلى الإسكندرية ، لكى يزور كبار تجارها من المصريين والأجانب فى محالهم وشركاتهم . . ويتعاقد على ما يريد شراءه منهم ، ويدفع لهم مستحقاتهم . . ثم يرجع مظفرًا إلى أسرته فى المساء حاملاً علبة « الجاتوه » الكبيرة من محال الإسكندرية التى تشتهر به ، إلى جانب بعض خبز « التوست » كبير الحجم الذى تجيد أفران اليونانيين بالثغر صناعته . . ونترقبه نحن بلهفة شديدة .

ولقد جاء دورى فى مصاحبة أبى إلى هذه الرحلة الخطيرة . . فلقد كان يستجيب لإلحاحنا عليه خلال إجازة الصيف ، فيأخذ أحد الأبناء معه فى كل رحلة طوال أشهر الصيف .

وفى محطة القطار بمدينتى أنتظر بقلب سعيد موعد السفر . .
وأتعجب لماذا الإصرار كل مرة على ركوب أول قطار يغادر المدينة إلى دمنهور فى الخامسة والثلث صباحًا . . مع أن هناك مواعيد أخرى أكثر ملاءمة فى السابعة والثامنة ؟

وتمضى رحلة القطار سريعة . . ونغادره فى محطة دمنهور ، فيتجه أبى إلى « بوفيه » المحطة . . ويطلب الشاى والبسكويت . . إلى أن يجىء موعد القطار المتجه للإسكندرية . . وتثقل علىّ فترة الانتظار هذه التى تصل إلى نحو الساعة، ثم يجىء الفرج مع اقتراب صوت القطار المنتظر . . وأنهض فى حماس مع أبى لركوبه ، ونشق طريقنا فى الممر الضيق أمام دواوين العربة ، ويطل أبى فى كل ديوان عسى أن يجد فيه مكانًا خاليًا . . إلى أن نجد الديوان الذى يتسع لنا فندخل ونجلس ، ويتحرك القطار فى طريقه السعيد . . ويغلبنى النوم فأغفل عما حولى بعض الوقت بتأثير الاستيقاظ المبكر والنوم المضطرب ليلة السفر ، ثم أتنبه فجأة، فأجد أبى مشتبكًا فى مناقشات حامية مع بقية ركاب الديوان ، وبعضهم من المصريين . . والبعض الآخر من ذوى الوجوه المحمرة من الأجانب المقيمين بمصر ، وتلتقط أذناى كلمات غريبة من نوع . . الحكومة . . البرلمان . . الوفد . . النحاس باشا . . الملك . . كريم ثابت . . الإنجليز . . نجيب الهلالى . . سعد باشا زغلول قال : لا فائدة ! . . إلخ .

ويستقر فى وجدانى أن الرجال الكبار لا بد لهم حين يركبون القطار أن يتحدثوا عن أحوال البلد ، ويتبادلوا الآراء فى مستقبلها ، وأستمع بإعجاب خفى إلى ما يبديه أبى من آراء . . وأجدنى أؤيده فيها على طول الخط ليس لأننى أعى ما يقول وأؤمن به . . وإنما لأنه أبى . . ولا بد أن يكون رأيه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من أمامه أو من خلفه . . ولهذا أضيق بمعارضة أحد الركاب لما يبديه أبى من رأى . . وأكاد أشتبك معه فى النقاش ، لأقنعه بما فى رأى أبى من وجاهة . . ثم أرد نفسى عما ترغب مراعاة للموقف . . غير أنه تفلت منى ذات مرة كلمة « لا » تعقيبًا على اعتراض الراكب على ما قاله أبى ، من أن الأحزاب قد أضاعت البلد بتطاحنها فيما بينها ، بدلاً من أن توحد جهودها لإجلاء الإنجليز عن مصر ، ينظر إلىَّ أبى بحزم . . وأشعر أنا بالخجل الشديد ، فأرجع إلى التزام الصمت . . ويبتسم الراكب المعارض ، ويسأل أبى عن سنى ومرحلتى الدراسية ، ويقول لى إنه سعيد بتحمسى لتأييد أبى فى آرائه ، لكنه يطلب منى الاستماع جيدًا للآراء المختلفة كلها دون تعصب ضد أى رأى . . لكى أحيط بكل جوانب الموقف قبل إبداء الرأى . . وأنظر إليه فى خجل ، وقد زال على الفور من نفسى ما شعرت به تجاهه من ضغينة عارضة ، وأتعلم الدرس الذى صاحبنى فيما بعد معظم سنوات عمرى . . وهو أن أسمع أكثر مما أتكلم . . وأن أسمع جيدًا وباهتمام، قبل التطوع بإبداء أى رأى . . وأن ألتزم الصمت فى مجالس الكبار إذا أردت حقًا أن أتعلم منهم ، وأستفيد من خبراتهم !


شهادة

البـــاب

نتناقل الخبر بقلوب تخفق بالخوف والأمل . ظهرت نتيجة امتحان الشهادة الابتدائية القديمة ويجرى الآن تسليم شهاداتها بفناء مدرسة النجاح الابتدائية التى تقع عند أحد أطراف المدينة . أهرول إلى أبى مصفر الوجه مرتجفًا وأبلغه بالخبر وأطلب منه مبلغ البقشيش الذى سأدفعه لفراش المدرسة ، إذا صدق الظن وحصلت على الشهادة . فى مثل هذا الموعد من كل سنة كان أبى يعطينى قبل الذهاب للمدرسة لاستطلاع النتيجة خمسة قروش أنفحها للفراش عقب النجاح « فيرفع » يده شاكرًا ، لكن أبى خرق المألوف هذه المرة وأعطانى عشرة قروش كاملة مراعاة لجلال الشهادة التى سأحصل عليها إذا قدر لى الفوز ، هرولت مع صديقين لى تطوعا لشد أزرى فى هذا الموقف العصيب إلى المدرسة البعيدة ووصلت إليها لاهثًا ، فوجدت سكرتير المدرسة يجلس إلى مائدة صغيرة فى الفناء وأمامه الشهادات و إلى جواره الفراش ، وحولهما عدد من التلاميذ الصغار بين مبتهج بالنتيجة وباك منها ، ورأيت كل تلميذ يقترب من السكرتير فيبلغه بنتيجته غير أنه يرفض أن يسلمه الشهادة إلا إذا نفح الفراش الواقف إلى جواره بقشيشه المناسب !

جاء دورى فتقدمت من السكرتير ، فما أن رآنى حتى هنأنى بالنجاح فتنفست الصعداء وهدأت ضربات قلبى بعض الشىء ثم مددت يدى لأتسلم الشهادة فأشار إلى الفراش إشارته المفهومة ، فأخرجت قطعة النقود الفضية وأنا أترقب ابتهاجه المتوقع بها وشكره عليها ، فإذا به يرفض تسلمها منى مستنكرًا ، ويقول لى إنه لن يقبل أقل من ريال كامل «كحلاوة» للفوز بالشهادة الابتدائية ، فأشعر بخجل الدنيا كلها ويتضرج وجهى بالاحمرار ويزيد من حرجى تدخل سكرتير المدرسة فى الحديث لائمًا ومعاتبًا :

ـ فعلاً يا ابنى إنها الابتدائية بجلال قدرها ! فكيف يكون البقشيش أقل من ريال ؟

فأشعر ببعض اللوم فى أعماقى تجاه أبى الذى لم يقدر الفوز الكبير الذى حققته حق قدره فوضعنى سوء التقدير فى هذا الموقف المحرج ، وأفيق من ذهولى على صوت السكرتير يدعونى للذهاب إلى أبى لاستكمال المبلغ والعودة لتسلم الشهادة ، فأنصرف محرجًا ومرتبكًا فلا يخفف من ارتباكى ما يؤكده لى الصديقان من أنهما قد رأيا بعض التلاميذ قبلى يعطون الفراش خمسة قروش فقط ويحصلون على الشهادة ، ولا تفسيرهما لما حدث لى بأنه مجرد « جشع » من السكرتير والفراش اللذين يتقاسمان البقشيش سرًا ، وأرجع لأبى بالخيبة فيبتهج لنجاحى ويستاء لتصرف السكرتير والفراش الذى سيكبدنى مشوارًا للذهاب للمدرسة مرة

أخرى ، ويعطينى ما يشبع « جشع » الفراش والسكرتير وينتهى الموقف بسلام ، ثم تسقط القصة كلها فى بئر النسيان سنوات طويلة إلى أن تقفز للذاكرة بعد أكثر من ٣٥ سنة ، حين يحصل ابنى على شهادته الابتدائية فأفاجأ بالهدايا و « النقوط » تنهال عليه من أعمامه وعماته وأخواله وخالاته ، وكأنما قد فاز بجائزة نوبل فى العلوم ! ثم تزورنى أمى ـ رحمها الله رحمة واسعة وأحسن مثوبتها ـ بعد نجاحه بأيام فتنفحه مبلغًا جسيمًا من المال لا يتناسب مع قيمة الشهادة نفسها بأى وجه من الوجوه، فأتذكر حالى حين حصلت على نفس الشهادة بلا احتفالات ولا نقوط، اللهم إلا ذكرى الموقف المحرج مع فراش المدرسة وسكرتيرها «الجشع»، وأعاتب أمى يرحمها الله على نفحتها المغالى فيها لابنى فى هذه المناسبة، وأسألها عن دواعى المبالغة فيها وهى لا تعدو أن تكون الشهادة الابتدائية وليست درجة الدكتوراه ، فتجيبنى إجابة تلخص لى خبرة الدنيا كلها فى كلمتين فتقول : لأنها « الباب » المؤدى لكل الشهادات بعد ذلك حتى الدكتوراه !

وأضحك للإجابة غير المتوقعة، وأتأملها طويلاً معجبًا ومتعجبًا ، وأجدنى أسلم بوجاهتها وحكمتها ، غير أن صوت الطفل الصغير يستيقظ فجأة من الأعماق السحيقة فيتساءل : ولماذا إذن لم يحتفل «بنا» أحد كل هذا الاحتفال حين اجتزنا نفس هذا « الباب » وما تلاه من أبواب؟



القصـــيرة

عُرفت بلقب « حميدة القصيرة » . . لقصر قامتها الذى يلفت الأنظار . . بالرغم من أنها لم تكن « قزمة » بالمعنى المفهوم .

وعلى خلاف غيرها من الكادحات فى بيوت الآخرين ، كانت مالكة لبيت صغير يقع فى الجوار القريب ورثته عن زوجها الراحل . . ولها حياتها كربة بيت ، وأم لطفل يتيم تعوله عن طريق مساعدة بعض ربات البيوت فى أعمالهن من حين لآخر . . فلا تخلو أذنها ـ بالرغم من بساطة الحال ـ من قرط ذهبى ، ولا معصمها من سِوَار من الذهب من أثر العز القديم ، تزور البيوت التى تتعامل معها فى مواسم العمل « المكثف » بها ، كيوم الخبز أو مناسبة زواج الابنة ، أو عودة رب الأسرة من الحج ، أو إقامة وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء . . ناهيك عن المناسبات الحزينة التى تحتاج إلى المساعدة الخارجية . . فتنهمك فى العمل من الصباح حتى المساء ، ثم ترجع إلى بيتها وطفلها . . لتعيش حياتها الأخرى كربة بيت محترمة .

ولقد ارتبطت فى ذهنى أول الأمر بمناسبة المولد النبوى الشريف . . فقد كانت المكلفة بتوزيع الشربات ـ الذى تعده أمى للمناسبة السعيدة ـ على السابلة عند مرور « الدورة » بنقطة التقاء شارعنا بالشارع الرئيسى للمدينة . . فتحمل الإناء الضخم ، وتنتظر اقتراب الدورة وتزاحم الناس لمشاهدتها ، فتملأ الأكواب وتهتف : اشرب وصلِّ على النبى . . ويتزاحم عليها العابرون . . فيرتوون ويشكرون . . وترجع هى فى النهاية سعيدة بما وُفِّقَت إليه .

أما « الدورة » . . فقد كانت « كرنفالاً » شعبيًا بسيطًا يقام فى مدينتنا كل سنة احتفالاً بالمولد النبوى . . فيبدأ من أمام مركز الشرطة ، ويمر بشوارع المدينة ، وينتهى بالطواف عدة مرات حول مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى . . وكان عبارة عن قول من سيارات النقل المكشوفة وعربات الكارو والحناطير . . يعرض فيه أبناء الحرف نماذج لأعمالهم وفنونهم . . فتمر سيارة نقل تابعة لأحد المقاولين يقوم العمال فيها بإقامة نموذج للشدات الخشبية التى تصب عليها الخرسانة . . وتمر سيارة ثانية تابعة لأحد تجار الفاكهة مزينة بأغصان الشجر التى تتدلى منها ثمار اليوسفى والبرتقال ، ويلقى راكبوها بعض هذه الثمار على المارة احتفالاً بالمناسبة الشريفة ، وتمر سيارة ثالثة تابعة لأحد التجار تعرض نموذجًا عمليًا لصنع الأوانى الفخارية ، ويوزع عمالها ما ينتجونه أولاً بأول على المارة . . ورابعة لعمال النجارة والموبيليا . . وخامسة لتاجر أقمشة مزينة بتكوينات جميلة من الأقمشة والألوان الزاهية . . وهكذا . .

وكانت « حميدة القصيرة » حلوة اللسان ، خفيفة الروح ، يلفت نظرى فى وجنتيها دائمًـا أخدودان غائران . . غير أنى ألحظ ذات يوم أن صفحة وجهها قد امتلأت ، واختفى منها هذان الأخدودان ! . . وأسأل عن السر ، فأسمع همسًا باسمًـا بأنها قد قامت بتركيب طقم أسنان جديد استعدادًا لزواج قريب بعد طول ترمل !

. . وأشعر أنا بالإشفاق على ابنها الذى يماثلنى فى العمر ، وأتوجس خيفة مما قد يصيبه لو لم يكن زوج الأم المقبل عادلاً ورحيمًـا .

غير أن الأمور تمضى إلى غايتها المقدورة . . وتختفى « حميدة » عن بيتنا بعض الوقت ، ثم ترجع وفى وجهها بقايا زينة غابرة ، وتنهال عليها مداعبات سيدات الأسرة ومناوشاتهن . . وهى تغالب خجلها ، وتحاول رد السهام الموجهة إليها . . ولا يمضى وقت طويل حتى تتحقق الهواجس التى راودتنى حين سمعت بخبر زواجها . . وأشهدها تشكو لأمى من سوء معاملة زوجها لطفلها وغيرته منه . . فضلاً عن تعطله شبه الدائم واعتماده عليها فى نفقات الحياة ، حتى فى مصروفه اليومى بالمقهى ! . . وتلوح لى النهاية الوشيكة لقصة الزواج المخيبة للآمال . . لكن الأيام تمضى و « حميدة » تشكو ، ولا تبدو فى نفس الوقت راغبة فى إنهاء هذا الزواج أو التخلص منه !

وأسمعها ذات يوم تشكو لأمى من كثرة مطالب زوجها ـ الذى

يصغرها فى السن ـ المادية ، وعجزها عن تلبيتها . . حتى لقد اضطرت لبيع مصاغها لتقديم ثمنه إليه . .

ثم تجيء فى يوم آخر مستاءة أشد الاستياء . . فتحكى عن خلاف جرى فى المقهى بين زوجها وبين رجل من رواد المقهى ، عيَّـره خلاله الرجل بأن زوجته تنفق عليه ، وبأنها قد باعت مصاغها من أجل ذلك . . وتشاركها أمى الاستياء لذلك ، وتقول لها مجاملة : ليس هذا بحق من شيم الرجال ـ قاصدة بذلك زوجها الذى يعيش عالة على كدها وعرقها ـ . . فتؤيدها حميدة القصيرة بحماس . . وتقول : نعم . . نعم . . ليس هذا من شيم الرجال بحق . . لكن ماذا نفعل فى حسد الحاسدين وغيرتهم ؟!

ويستغلق الأمر علىَّ بعض الوقت . . ثم أتبين المفارقة بعد قليل! . . وهى أن أمى تلوم زوج « حميدة » الخائب على استنزافه نقود زوجته . . أما « حميدة » فإنها تلوم الرجل الذى عيّـر زوجها بذلك ، ولا تلوم زوجها المحبوب فى شىء مهما يفعل !

وأحتاج أنا إلى سنوات أخرى من العمر لكى أفهم هذا اللغز ـ الذى بدا لى غير قابل للفهم فى حينه ـ . . ويتطلب ذلك منى خبرة أكبر بالحياة ، وفهمًـا أعمق لأسرار النفس البشرية بصفة عامة . . ونفس المرأة على وجـه الخصوص !

ثورة الغبار

فى طرف من أطراف أرض السوق نختار ملعبنا لخوض مباراة الكرة اليومية . . يشتد بنا الحماس ، فتحمر الوجوه ، ويتصبب العرق . . ويعلو الصياح . .

نختلف على إحدى اللعبات ، وهل هى خطأ يستوجب ضربة جزاء ، أم من الخشونة المباحة فى اللعب الجاد . .

ينهض كل فريق للدفاع عن وجهة نظره ، ويقسم بأغلظ الأيمان على صحة موقفه . . ويتوقف اللعب مع تهديد الفريق المضاد بالانسحاب . . فيرد عليه الفريق الآخر بأن الانسحاب يعنى فى شرع اللعبة الهزيمة بستة أهداف كاملة ، حتى ولو كان الفريق المنسحب فائزًا قبل توقف اللعب ! وينصح عقلاء الطرفين بالاحتكام لأحد الكبار العابرين للمكان . . فنستوقف أول عابر بنا ونطلب حكمه ، ونعيد تمثيل الواقعة أمامه . . وقد نتبادل خلال ذلك الاتهامات بعدم الأمانة فى حكاية الموقف وتمثيله . . فيسمع لنا العابر فى صبر ، ثم يصدر حكمه العادل ـ ويكون غالبًا حكمًا توفيقيًا يرضى الطرفين . . ويمضى إلى غايته

مشكورًا، ونرجع نحن للتنافس الحار، ويستغرقنا اللعب فننسى المكان والزمان ، إلى أن نفيق فجأة على صياح سيدة من الجوار القريب . . تلعننا وتصب علينا جام غضبها ، وتهددنا بإلقاء الماء علينا إن لم نغادر المكان على الفور . . بدعوى أننا بلعبنا نثير الغبار على مسكنها الواقع فى الدور الأرضى والمقابل لملعبنا . . ونرضخ لمطلبها صاغرين . . بالرغم من عدم اقتناعنا بذريعة الغبار هذه، لأن بيننا وبينها عرض الشارع، واتجاه الريح لا يخدم زعمها ! ونبتعد عن مسكنها لمسافة كافية اتقاء لأذى لسانها . . لكن بعد المكان لا يمنع عيون الصغار عن مشاهدة ما تحرص على إبعادنا عن بيتها لكى لا نراه، ولا عقولهم من إدراك السبب الحقيقى لهذه الثورة المفتعلة ! ومن ملعبنا الجديد نترصد بأبصارنا باب مسكنها المغلق إلى أن يفتح فتحة ضيقة ، ويتسلل منه أفندى شاب من أفندية المدينة ، فيسرع الخطى مبتعدًا عن البيت . . فما أن يطمئن لابتعاده عنه قليلاً . . حتى يمشى فى تؤدة . . مصطنعًا الوقار والحشمة!

فنتبادل النظرات الخبيثة . . ونطمئن إلى أن « الغبار » لن يزعج السيدة الآن بعد أن أدى « دوره » كذريعة لإبعادنا عن مدخل بيتها . . لكى يخرج منه الأفندى مطمئنًا إلى خلو الطريق من الناظرين . .

ونستمتع بهدوء الحال إلى أن يطرق باب البيت طارق جديد ، ثم تقترب لحظة خروجه ، فتفتح السيدة الباب ، وتصب جام غضبها علينا من جديد لكى نبتعد . . ونخلى الطريق من العيون . . ويخرج الزائر

الآخر . . فالسيدة التى يزعجها غبار لعب الصغار . . تدير مسكنها للمتعة المحرمة ، ويؤم بيتها بعض عزاب المدينة وطلاب الفجور !

وبالرغم من أن الكبار لا يتحدثون مع الصغار أبدًا فى مثل هذه الأمور، ولا يجيبون على أسئلتهم إذا تساءلوا . . فلقد أدركنا نحن الحقيقة بغير معلم ، وتعجبنا مما يظنه بنا الكبار من الغفلة !

وفهمنا الأسباب الحقيقية لثورة الغبار هذه ، وتعايشنا معها كأنها من طبائع الأمور !

وتواصلت اللعبة بيننا وبين تلك السيدة بلا انقطاع كل يوم . . فلا هى ملت ذات مرة زعمها لنا أننا نهيل عليها الغبار كلما احتاجت إلى الإفراج عن أحد روادها . . ولا نحن اقتنعنا لحظة واحدة بزعمها المفضوح، أو خفى علينا سببه الحقيقى !

وأدهشنا ذات يوم أن رأينا من بين المتسللين من بيتها مدرسًا لنا بالمدرسة الابتدائية . . كان ثقيل الظل على قلوبنا ، وقاسيًا فى تعامله معنا ومتشددًا بلا رحمة معنا فى كل ما يتعلق بأمورنا . . حتى كنا نخشاه ونتهيبه أكثر من غيره من مدرسى المدرسة . . فما أن رأيناه يتسلل من هذا البيت ذات أصيل بعد « دش » الغبار المعتاد فوق رؤوسنا . . حتى فقد اعتباره فى نظرنا إلى الأبد . .

وتعاملنا مع شدته معنا بعد ذلك بشىء كثير من الاستخفاف الداخلى . . فكأنما نقول له بغير كلام : « إلعب غيرها » !


الصبر مفتاح الفرج

لحظة الحسم

خلا البيت الملاصق لبيتنا من سكانه .

كان بيتًا صغيرًا من دورين له فى ذكرياتنا نصيب غير منكور . . فلقد « هاجرت » إليه أسرتى ، وأقامت فيه عامًا وبعض عام خلال فترة هدم بيتنا القديم وإعادة بنائه من جديد . . وأقامت فيه من بعدنا أسرة أخرى، ثم انتقلت منه إلى مكان غير معلوم . . وسرى الخبر السعيد بأن من ستخلفها فيه أسرة من الأقارب الذين تربطنا بهم صلة حميمة . . أصغر أبناء الأسرة فتى يكبرنى بعامين أو ثلاثة ، تعثرت خطواته الدراسية فلحقت به فى نفس الصف الدراسى . . وبروحه المرورة شكا فعل الزمان به فقال ، فى سخرية اكتئابية : كنت أستذكر دروسى من قبل مع شقيقك الأكبر . . والآن أستذكرها معك . . فترى مع مَنْ مِنْ بقية الإخوة سوف أستذكرها غدًا ؟!

ولم أتوقف فى البداية أمام « المرارة » التى تقطن أعماقه بالرغم من صغر سنه . . لكن الأيام سرعان ما أكدت لى أنها لم تكن عارضة ولا عابرة . .

فلقد كان والده ـ فى زمن لم أدركه ـ تاجرًا ميسورًا . . ثم تعثرت تجارته ، واضطر إلى تصفيتها ، وأصبح يعتمد فى حياته على القيام بعقد صفقات تجارية صغيرة من البيت . . فانخفض مستوى معيشة الأسرة كبيرة العدد بعض الشىء ، وكان الفتى الصغير هو أكثر أفرادها تأثرًا بذلك . . فاكتست روحه فى سن مبكرة بغلالة من المرارة والإحساس بظلم الحياة !

وحين انتقلت أسرته للإقامة فى الجوار القريب ، كانت الأسرة تعتمد فى حياتها أو تكاد على عائد عمل الابن الأكبر . . ثم سرعان ما ودع الأب الحياة ، وأصبح أكبر الأبناء هو عائل الأسرة الوحيد وكبيرها . . وتراكمت المرارة فى نفس الفتى الصغير حتى استقرت فى الحنايا . . وبالرغم من ذلك فلقد كانت له أوقات صفاء تلمع فيها لديه روح المرح والسخرية من كل شىء . . ومن ذكريات هذه الأوقات السعيدة أنه جاء إلينا ـ أنا وشقيقى الأكبر ـ ذات يوم وهو يتمايل من شدة الضحك ، ويحمل فى يده مظروفًا قديمًا لرسالة عثر عليها بالمصادفة فى أوراق أبيه ، وحاول أن يقرأها علينا فلم يتمالك نفسه من الضحك ، فسرت إلينا العدوى حتى من قبل أن نعرف ما يضحكه ! . . أما الرسالة فقد كانت بخط يد أبيه . . ومرتدة من البريد لعدم الاستدلال على عنوان المرسل إليه . . وقد عثر عليها الفتى بعد سنوات طويلة من ارتدادها ، فوجدها مكتوبة باللغة العربية وبالقلم « الكوبيا » الذى كان يستخدمه التجار فى ذلك الزمان ، وتحمل على غلافها هذه العبارة :

« إلى جناب الخواجة فيليبس بهولندا » . . وقرأ مضمونها فوجد أباه يشكو فيها مر الشكوى إلى « جناب الخواجة » من وكيل الشركة بالإسكندرية لتعنته معه فى تعاملاته التجارية !

ولسنوات عديدة تصبح الرسالة الموجهة إلى جناب الخواجة فيليبس . . مثارًا لضحكاتنا وسخرياتنا . . ورمزًا للأمل اليائس من تحقق العدل وانصلاح الأحوال !

وخلال تلك الفترة من العمر كنا قد شاهدنا فيلم « أمير الانتقام » . . واستهوتنا منه وسيلة التواصل بين السجين « أنور وجدى » والسجين الآخر الذى يشغل الزنزانة الملاصقة له « حسين رياض » عن طريق الدق على الحائط المشترك بين الزنزانتين . . وكانت غرفة نوم الفتى تلاصق غرفة نومنا أنا وشقيقى ، ويفصل بينهما جدار مشترك ، فأصبح الطرق على هذا الجدار هو وسيلة التراسل بيننا وبينه . . فطرقة واحدة عليه معناها : كيف الحال ؟ ، واثنتان معناهما دعوته إلى الإطلال من النافذة للتحدث معه عبرها ، وثلاث معناها تفضل بالزيارة الآن . . وهكذا !

وبمرور الأيام ازداد الاقتراب بينى وبين الفتى . . خاصة حين لمس كل منا فى الآخر ميوله الأدبية أو الفنية . . فلقد كان الفتى موهوبًا فى الرسم ويكتب الشعر . . فى حين كنت أتعثر أنا فى محاولات التعبير عن النفس بالخطرات . . والشعر الحر .

وفى فترة الصبا تشكلت بعض ملامح شخصياتنا ، وتحددت

علامات الطريق الذى يحلم كل منا بالسير فيه . . فلقد تطلع الفتى لدراسة الفنون الجميلة والتفرغ للفن ، وحلمت أنا بدراسة الصحافة واختيارها طريقًا لى فى الحياة .

وحين حصلنا على الثانوية جاءت لحظة الحسم والاختيار . . وأراد الفتى أن يتقدم بأوراقه إلى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية . . لكن شقيقه الأكبر فضل له أن يلتحق بكلية التربية البدنية ، لأن الدراسة بها أقل أعباء منها فى الفنون الجميلة ، كما تتضمن الإقامة الكاملة فيها ! وكتم الفتى المرور مشاعره ورغباته ، وأظهر الاقتناع بوجهة نظر أخيه عائل الأسرة . . وكان شديد الحساسية تجاهه بالرغم من طيبته . وأعد ملف أوراقه للتقدم به لكلية التربية البدنية ، وسافر مع شقيقه ليقدمها إليها . . وفى الكلية مد الفتى يده بأوراقه إلى « المسجِّل » . . وتسلمها منه الرجل بالفعل . . فإذا ببركان المرارة والشعور بالظلم ينفجر فجأة فى أعماق الفتى فيمد يده مرة ثانية إلى « المسجِّل » ويجذب منه أوراقه بقوة ، ويعلن لأخيه الواقف إلى جواره ـ وقد اكتسى وجهه لأول مرة بالإصرار ـ أنه لن يقدمها إلا لكلية الفنون الجميلة !

وتكهرب الجو للحظات . . ودهش « المسجِّل » لما يجرى أمامه . . غير أن الأخ الأكبر ـ وكان طيب القلب ـ سرعان ما يستوعب الموقف ، ويسلم له برغبته ، ويصحبه إلى « الفنون الجميلة » ليقدم أوراقه . . فيحدد الفتى بذلك مصيره . . ويعين أقداره عليه !

فلقد التحق بالكلية التى تمنى الالتحاق بها ، وأمضى عامه الأول بها فى هدوء يخفى وراءه نارًا تحت الرماد . . ووقع فى غرام زميلة له من النظرة الأولى ، وأحبها فى صمت حبًا قاهرًا مُذلاً ، لم تستجب له الفتاة ، ولم تستشعر خطورته . . فإذا بالقشرة الظاهرية للتوازن النفسى لدى الفتى تنكسر فجأة ، وإذا به ينهار نفسيًا وعصبيًا من أثر التفاعلات المضطرمة فى أعماقه على مر السنين . . فيدخل طورًا من « التيه » أو الانهيار النفسى، يعالج منه لفترة طويلة ، ويخرج منه وقد ترك على شخصيته بصمات غائرة صاحبته بقية العمر . . وحرمته ـ للأسف ـ من حق التعيين كمعيد بالكلية بالرغم من تفوقه ، فيعمل خبيرًا فنيًا فى أحد قصور الثقافة ، ويمضى حياته المضطربة فى وحدة كاملة فى مرسمه بالقصر . . ويبدع أعمالاً فنية جميلة تكتسى كلها بروح التشاؤم والاكتئاب، ويكتب أشعارًا جميلة تضيع فى بئر الإهمال . . ويلتف حوله بعض الشباب الذين يؤمنون بموهبته ، ويعجبون بحياة « الرهبنة الفنية» التى يعيشها ! . . ويسرف هو فى التدخين بشراهة عجيبة ليل نهار مع الأرق المزمن ، وعدم الاهتمام نهائيًا بالتغذية والصحة . . فتنطفىء شمعته فجأة وهو فى الثلاثينيات من العمر . . ويرحل عن الحياة وحيدًا ممرورًا . . وتبقى لمحات الفن والإبداع ، والروح الساخرة الممرورة . . تذكِّر به محبيه وعارفى قدره من النقاد إلى الأبد . . يرحمه الله .



البحث عن السعادة

فى أحد أطراف المدينة مساحة أرض مسورة بسور من الأسياخ الحديدية ، لها مدخل تعلوه لافتة قديمة تحمل عبارة : « شركة الأسواق الإنجليزية» . . نتأمل ونحن صغار اللافتة ونعجب لكلمة «الإنجليزية» هذه ، وتثير لدينا مخاوف غامضة ، فى زمن كان الإنجليز يحتلون فيه بلادنا . . غير أننا لا نرى إنجليزًا فى المكان ، ولا نصادف أية قبعة ! ونفهم بعد حين أن المساحة مؤجرة لهذه الشركة ، لكى تقام عليها سوق المدينة يوم الخميس من كل أسبوع . .

ونعرف بالتجربة أن بشائر السوق تبدأ مع مساء يوم الأربعاء ، حيث يتوافد على المكان بعض المزارعين وتجار الريف ليبيتوا ليلتهم فيه استعدادًا لمعركة البيع والشراء التى تبدأ فى الصباح الباكر . . وفى الصباح يزدحم المكان ـ الذى يظل خاليًا طوال الأسبوع ـ بمئات من الباعة والمشترين ، وعشرات الماشية والدواجن والغلال . . إلخ ، ويجلس فى مدخل السوق موظفان بالشركة الإنجليزية من أهالى المدينة

. . ينظمان دخول الرواد ، ويتقاضيان عن كل رأس ماشية تدخل السوق أجرًا محددًا ، ويقطعان التذاكر ، ويتجادلان مع التجار الذين يرغبون فى تخفيض القيمة . . إلخ .

ولأن الحاجة هى أم الاختراع . . فلسوف يتحايل بعض الرواد على دخول السوق بغير دفع ثمن التذكرة لحيواناتهم ، فيخلعون بعض قوائم سور السوق فى طرف بعيد . . ويتسللون منه بحيواناتهم الصغيرة !

وفى داخل المكان يلتقى الباعة والمشترون . . ويحتدم الجدال بينهم ، ويتدخل الوسطاء للتوفيق بين الطرفين لقاء أجر معلوم .

ويصل زحام السوق إلى ذروته عند الظهيرة ، ثم يبدأ فى الانحسار ، إلى أن ينتهى تمامًا عند الأصيل . . ويغادر المشترون السوق بما اشتروه ، ويرجع من لم يحالفه الحظ فى بيع تجارته إلى قريته . . وهو يتعلق بالأمل فى حظ أفضل خلال « موقعة » الأسبوع المقبل !

ويخلو المكان تمامًا من رواده ، وتبقى وراءهم مخلفاتهم من بقايا الأشياء ، وتصبح أرض السوق بقية أيام الأسبوع ، ملعبًا للصغار ، وميدانًا لتدريب فريق المدينة لكرة القدم ـ الذى يزخر بالنجوم الساطعة فى سمائنا ! . . ويظهر بمجرد انتهاء السوق عند الأصيل رجل نحيل طويل . . هادىء مهذب . . لا يكلم أحدًا ، ولا يسمع له أحد صوتًا . . يذرع المكان ببطء شديد وهو عاقد ذراعيه خلف ظهره ، مسددًا

بصره إلى الأرض ، كأنما يبحث عن شيء سقط منه . . فيقطع أرض السوق شمالاً وجنوبًا ، وشرقًا وغربًا فى صبر عجيب ، وعيناه لا تفارقان الأرض . . ثم ينصرف إلى حال سبيله !

ولبقية أيام الأسبوع بعد ذلك سوف يظهر هذا الرجل فى المكان ، أصيل كل يوم ، فيتجول ببطء ، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره ، ومدققًا النظر فى الأرض كأنما يبحث عن شيء لا يجده أبدًا . . إلى أن تحل عتمة المغرب ، وتضعف الرؤية ، فيرجع من حيث أتى . . وهكذا . . أسبوعًا بعد أسبوع ، وشهرًا بعد شهر ، وعامًا بعد عام . . فلا نشهده يومًا يعثر عما يبحث عنه أو يأمله . . ولا نراه ييأس أبدًا من البحث وتدقيق النظر فى الأرض !

وبفضول الصغار نتساءل عما يبحث عنه هذا الرجل الغريب ، ويتجرأ أحدنا ذات يوم فيتقدم منه سائلاً :

ـ يا عم . . ما الذى تبحث عنه ؟! . . هل سقط منك شيء ؟!

فينزعج الرجل للسؤال فى البداية . . ثم يسارع بالإجابة فى أدب :

ـ أبدًا . . إنما أنا أتمشى فقط !

فلا تقتنع عقولنا بهذا الادعاء . . ويثير انزعاجه للسؤال لدينا الإحساس بأنه يتخفى بما يفعل ، ولا يريد أن يطلع عليه أحدًا . . ويتطوع البعض بتفسير بحثه الأبدى عن شيء لا يجده أبدًا ، فيقول

لنا : إن هذا الرجل كان قد عثر فى الأرض عقب انفضاض السوق ذات يوم منذ عدة سنين على مبلغ من المال سقط خلال الزحام من أحد التجار ، فالتقطه واعتبره غنيمة له . . ومنذ ذلك الحين وهو يعاود البحث فى الأرض عقب كل سوق ، عسى أن يتكرر الحظ السعيد ، ويعثر مرة أخرى على مبلغ آخر أو قطعة ذهبية أو أى شىء له قيمة فلا يجد سوى العدم ، ولا ينقطع فى نفس الوقت أمله فى العثور على كنزه المنشود!

وبروح المشاغبة يتندر عليه الصغار . . ويتهمه البعض بالخبل والجنون .

غير أن الأيام تمضى فى طريقها المحتوم ، وتنضج العقول الصغيرة ، وتخوض تجربة الأيام . . فأجدنى على الكبر أتذكر هذا الباحث الدائم فى مواقف عديدة من مواقف الحياة . . وأقول لنفسى : ما أشبه الإنسان فى بحثه الأبدى عن سعادته ـ التى لا يجدها أبدًا ـ بهذا الرجل النحيل الطويل الذى كان يذرع أرض السوق فى مدينتى الصغيرة كل أصيل !

السؤال

يتخذ أبى قرارًا عائليًا خطيرًا بأن تكتفى شقيقتى الكبرى بما نالته من تعليم ، وتحتجب فى بيتها لتتلقى تدريبها الأهم على الحياة العائلية انتظارًا للنصيب المقدور . أسمع الخبر فأغبط أختى فى أعماقى على تحررها من سجن المدرسة ، لكننى أشفق عليها فى الوقت نفسه من أن يكون هذا القرار محبطًا لطموحها الدراسى . وأشعر بعد قليل بالاطمئنان حين أراها على عكس المتوقع سعيدة بهذا القرار وراضية عنه بالرغم من تفوقها المدرسى الملحوظ . . وتترامى إلىَّ الأنباء أن أحد مدرسيها واسمه «موريس أفندى» قد انزعج كثيرًا لانقطاعها عن الدراسة ، مما سوف يحرم المدرسة من إحدى الناجحات فى امتحان الشهادة القريب ، وأنه سعى إلى مقابلة أبى فى تجارته ، وحاول إقناعه بالعدول عن هذا القرار لكيلا تفقد المدرسة تلميذة نجيبة ترفع نسبة النجاح فى الشهادة الموعودة ، لكن أبى يشكره على اهتمامه ويعتذر له برقة عن عدم الاستجابة لرجائه لظروف عائلية . . فيرجع الرجل حسيرًا ، وتتوقف شقيقتى الكبرى عن

الدراسة، لكنها لا تتوقف عن القراءة ، ومن ذلك اليوم يصبح عالمها هو الراديو والمطبخ ومجلة « الكواكب » ـ الشهرية فى ذلك الحين ـ ، ومجلتى «المصور» و « الاثنين » الأسبوعيتين ، والجلسات العائلية الطويلة مع أمى ، واستقبال الصديقات ، وممارسة فنون الطهى والشئون المنزلية . وعن طريقها أتعرف على العالم المسحور للمجلات الشهرية والأسبوعية . . وأعرف أن هناك نوعًا آخر من الكتب غير الكتب الصفراء الكبيرة التى يحوزها أبى ، وكلها تفاسير للقرآن أو كتب للحديث . وأتعجب من أن يكون هناك كتاب ثمنه خمسون قرشًا دفعة واحدة ، فأقلبه فى يدى متعجبًا ، وأقرأ عنوانه : « فن الطهى » من تأليف « أبلة نظيرة نقولا » فيرسخ اسم المؤلفة وكتابها فى الذاكرة كأنهما يتحديان النسيان ! . . وتسهم شقيقتى هذه من حيث لا تدرى فى تحديد مصيرى بفتحها لى أبواب عالم القراءة السحرى فى سن مبكرة . .

وتمضى السنوات ويتحدد المصير . . فأتساءل : ترى هل أحسنت إلىّ شقيقتى حين قادتنى إلى عالم المعرفة المضنى . . أم أساءت ؟! وأتأمل السؤال متعجبًا . . وأظل عاجزًا ـ رغم مرور السنين ـ عن الجواب !

النـــــوم

كان يبدو دائمًـا نائمًـا أو كالنائم ! عيناه نصف مغلقتين كأنما يثقلهما النعاس . . كلماته بطيئة كأنما ينتزعها من فمه انتزاعًا ، وصوته خفيض وفاتر كأنما يهمهم به لنفسه ولا يعنيه أن يسمعه أحد . . لا يسعى لصداقة أحـد . . ولا يصد عنـه أيضًا من يرغب فى صداقته . . نشك ـ بالرغم من صغر أعمارنا ـ فى أن يكون نعاسه وفتوره راجعين إلى ما نسمع عنه من أثر المخدرات على من يتعاطاها . . لكن اقترابنا منه يكشف لنا براءته من التهمة . . فحتى السيجارة التى يدخنها التلامذة الفاسدون سرًا فى دورة مياه المدرسة هو بعيد عنها . . ونسلم فى النهاية بأنها طبيعته الفاترة التى لا يحركها شيء مما يحرك الصبية فى مثل سنه ، ولا يثيرها شيء . . ونعرف أيضًا أنه واحد من هؤلاء الغرباء الذين تحمل حركة التنقلات الحكومية آباءهم إلى مدينتنا ، فيقضون بها بضع سنوات ثم يرحلون عنها ، وإن له أختًا تقاربه فى العمر وتذهب إلى مدرسة البنات . . وأخًا أكبر يدرس فى العاصمة . . . ، ولا تلمع عينا هذا الفتى

بعض الشىء إلا إذا تحدث عنه . . فهو بالنسبة له المثل الأعلى فى كل شىء . . فى الجسم الرياضى والأناقة . . وحسن التصرف . . والمستقبل اللامع الذى ينتظره .

وفيما عدا ذلك فهو فاتر الروح على الدوام وقليل الحماس للأشياء . . فحتى الفتيات الصغيرات اللاتى نتابعهن نحن بنظراتنا المتلهفة . . وتطلعاتنا المحرومة لا يثرن اهتمامه . . ولا يجتذبن نظراته ، وأسعد أوقاته ـ كما يقول لنا ـ هى التى يقضيها فى النوم . . سواء فى بيته . . أو فى المدرسة . . لهذا فلقد استحق بجدارة اللقب الذى أطلقه المشاغبون عليه وهو « فلان النوام » ! . . وشيئًا فشيئًا استقر اللقب فى الأذهان حتى أصبح علامة عليه ، فلا يذكر اسمه إلا متبوعًا به ، وسمعه تلاميذ جدد انضموا إلى دائرتنا يتردد على ألسنتنا فظنوه اسم عائلته . . ونادوه به فأثاروا ضحكاتنا . . ولم يغضب هو وإنما انتزع من تقاطيع وجهه ما يشبه الابتسامة وهو يهمهم : أغبياء !

ويقضى فلان النوام معنا ثلاث سنوات أو لعلها أربع ، ويختفى من المدينة مع أسرته ، كما يختفى منها الغرباء عند صدور حركة الترقيات . وتصلنى منه على المدرسة رسالة واحدة من بضعة سطور يقول لى فيها إنه التحق بمدرسة بنباقادن الثانوية بالقاهرة ، وأنه يفتقد جو مدينتنا الصغيرة ومدرستنا وشلتنا . . ويشكو من أنه لا يعرف أحدًا فى المدرسة الجديدة ولا يعرفه أحد ، ولهذا فهو يمضى معظم وقته فيها نائمًـا !

وأضحك للرسالة طويلاً وأعرضها على الأصدقاء . . وأتذكره بحنين غريب . . ثم تمضى الأيام فتنقطع عنى أخباره ويسقط فى هاوية العدم والنسيان . .

أغادر مدينتى إلى العاصمة كما غادرها وأنهى دراستى الجامعية وأعمل بالصحافة سنوات طوالاً ، ثم أركب الطائرة ذات يوم فى رحلة عمل . . فأنشغل بها أقرأه لفترة طويلة . . إلى أن أتنبه على يد المضيف تلمس كتفى وصوته وهو يقول لى : إن « الكابتن » يبعث إلىَّ بتحياته ويدعونى إلى فنجان من القهوة فى كابينة القيادة ، وأسأله عن اسم هذا الكابتن فيردد على سمعى اسمًا لا معنى له . . فأشكره وأعده بالذهاب إليه بعد قليل . . وأرجع للانشغال بها كنت أقرأه فيعود المضيف ثانية ليكرر الدعوة . . وأضع الكتاب وأنهض معه وأنا أتساءل عن هذا « الكابتن » الذى لا أعرفه ويصر على دعوتى إلى كابينة القيادة . . وأدخل الكابينة فأرى وجهًا يتطلع إلى بنظرة ناعسة يخالطها شىء يشبه الابتسامة . وأشعر للوهلة الأولى بأننى قد رأيت صاحبه من قبل ، لكنى لا أعرف متى رأيته ولا أين ؟ ويسألنى هو فى هدوء غريب . . وفتور لا يتناسب مع الموقف : ألا تتذكرنى ؟ فأستغرق حائرًا فى التفكير دون أن تلوح بارقة أمل ، ثم تلمع الذكرى فجأة . . فأتذكر الشخص ، لكن هيهات أن يطفو على السطح من اسمه إلا ذلك اللقب المعيب الذى كنا نطلقه عليه . . فأقول له مترددًا : أنت . . أنت ! ثم يعجز لسانى عن النطق

باللقب مراعاة لواقع الحال ووجود مساعد الطيار ، لكنه يكمل هو الجملة الناقصة بنفس الهمهمة القديمة قائلاً : النوام ! هل تخجل من النطق بالكلمة ؟

وأنفجر أنا ضاحكًا ومبتهجًا . . أما هو فإن أقصى انفعال باللحظة بدا عليه هو أن سرت فى وجهه الابتسامة غير المرئية . . وروى لى أنه رآنى فى مقعدى بالطائرة وهو فى طريقه إلى الكابينة وعرفنى على الفور ، واعتزم أن يدعونى إلى فنجان قهوة بعد الإقلاع . . وراح يسألنى عن أصحاب زمان . . ويطول بنا حديث الذكريات ونتبادل أرقام التليفونات والعناوين ، وأعرف منه أنه متزوج وله ابنة اقتربت من الشباب . . ويتفضل بالثناء قائلاً إن زوجته وابنته تتابعان باهتمام ما أكتبه . . ولا تصدقان أننا كنا صديقين وزميلين خلال الدراسة . . وأسعد كثيرًا بالحديث إليه والسماع منه ، ويمضى الوقت كالبرق ، ثم تغلبنى روح المشاغبة ، فأسأله : وكيف تشبع هوايتك القديمة فى النوم وأنت مسئول عن قيادة هذه الطائرة وأرواح الركاب الذين تحملهم ؟

فيجيبنى بلهجته الساخرة القديمة ، وأنا أتهيأ للعودة إلى مقعدى : ألم تسمع عن الطيار الآلى الذى يقود الطائرة بعد الإقلاع . . فيتفرغ الكابتن لما يشاء من أعمال ؟!

التحـــدى

يسمع الصبى وهو فى منزله أصوات رفاق الشارع وهم يتجادلون بعنف ، فيعجب لهذا الخلاف المبكر ولم يكد يبدأ النهار . . يستعد للخروج ليسأل الرفاق عما أثار خلافهم الحاد هذه المرة . . فيخيل إليه أنه قد سمع اسمه يتردد على ألسنتهم ، فيرهف السمع متهيبًا أن يكون أحدهم قد أقحمه فى الخلاف الذى لم يشهده أو افترى عليه قولاً مسيئًا لم ينطق به . . ويسرع بارتداء الحذاء ليستكشف الأمر ، فيسمع هذه العبارة الغريبة وهو يقترب من الباب : أتظنه حقًا عصيا على الضرب ؟ سأثبت لك عكس ذلك فى أقرب فرصة . .

يشعر بأنه مطالب بإطفاء الحريق قبل أن تندلع شرارته وتتسع ، فيحشد كل قدرته على التهدئة ولم الشمل ويخرج إلى الشلة محييًا ومناشدًا الجميع بصوته الرفيع أن يتذكروا ما يجمعهم من مودة ورفقة . . فيفاجأ بالوجوه المتجهمة الصامتة . . والعيون المتقدة بالغضب ، يحاول تلطيف الجو المتوتر ، فيتجه إلى أقربهم إلى قلبـه . . وأكثرهم التصاقًا بـه حتى

عرفا بين الجميع بصداقتهما الحميمة ، ويسأله عما حدث . . فيفاجأ به ينظر إليه نظرة غريبة ، ثم يقول له وكأنما يزف إليه بشرى خبر سار :

ـ إن شاء الله سوف تنال اليوم منى علقة ساخنة !

يعجب للقول غير المتوقع ويحار . . هل يعتبره مزحة فيضحك لها . . أم مكيدة يدبرها الرفاق له ؟!

ويتساءل : ماذا تقول ؟

فيكرر : ستنال اليوم علقة ساخنة .

يتلفت حوله ليرى أثر « المزحة » فى وجوه الرفاق فيراهم جامدين لا يضحكون فيعرف أنها ليست مَزحة . . وإنما الغدر الذى لا يعرف له سببًا . . ويصدم فى مشاعره صدمة مزلزلة . . لكنه لا يفقد الأمل فى أن ينكشف الأمر فى النهاية عن دعابة سخيفة ، سوف يعاتب صديقه بشدة على مشاركته فيها . . ويهم بالتحرك مبتعدًا عن الشلة فيلاحقه صوت الصديق الغادر : فى ملعب الكرة عند الأصيل ! فيعرف أنه يحدد له أرض المعركة المقبلة وموعدها ؛ إذ جرت العادة ألا تجرى هذه المعارك إذا جرت أمام بيوت المتعاركين لكيلا يتدخل الأهل . . وتتسع النيران ، ويمضى حزينًا ومهمومًا ، ويلحق به أصغر أفراد الشلة وأكثرهم ميلاً للمسالمة . . فيمشى إلى جواره وتسرى روح التعاطف الصامت فى الجو . . فيسأله الصبى عما استحق به هذا الغدر من جانب أقرب الرفاق

إليه، فيجيب بأغرب إجابة يمكن أن يتوقعها المرء فى مثل هذه الأحوال ويقول له : إن الحديث قد بدأ عاديًا بين صبيين راحا يستعرضان « قوة » كل فرد من أفراد الشلة ، ويرتبان أفرادها فى سلم الفتوة والقدرة على الدفاع عن النفس ، فجاء ذكره بين من ذكرهم الصبيان . . واختلفا حول تقييم قوته . . فرشحه أحدهما لأن يكون من الطبقة الأولى . . وأصر الصديق ، على أنه من محاربى الطبقة الثانية . . وطال الجدل حول ذلك فتملك الحمق الصديق المقرب ، وأعلن أنه سيضرب صديقه ويدميه ليقنع الآخر بصدق تقييمه لقوته .

وهكذا تلقت الصداقة الطعنة الغادرة ولسبب يثير الحزن أكثر مما يثير الضحك ، وتمضى ساعات النهار بطيئة ويلتقى المتحدى مع من فرض عليه القتال بلا سبب وسط حشد من الصغار . . فيبدأ الصديق الغادر الصراع غير مراع لأى اعتبار ويحمل على صديقه السابق بشدة غير مبررة ويصمد الصبى المغدور به للنزال مكتفيًا فى البداية بتفادى الضربات وتجنب إيذاء خصمه . . لكن الآخر يندفع فى الحماقة . . ويضاعف من الأذى فيضطر لمبادلته الضرب ويلحق به ضربات موجعة . . ويستمر النزال طويلاً دون أن تلوح فى الأفق أية بادرة على احتمال حسم المعركة لصالح أحد الطرفين . . ويتحرك أخيرًا حكماء الشلة . . فيتدخلون للفصل بين الصديقين المتصارعين ، ويحكمون لهما بالتعادل فى القوة ، ويلعق كل طرف جراحه وهو يتفادى النظر فى عين خصمه . . ويقترح

أحد الحكماء اعتبار الأمر وكأن لم يكن ، ويطلب من الصديق المغدور به أن يصفح عن صديقه السابق ويعيد مياه الصداقة إلى مجاريها بينهما .

فيتحسس الصبى المغدور به شفته المجروحة . . ويشعر بأن جرحها سيطيب خلال يومين أو ثلاثة ، أما جرح القلب بسهم الغدر والخذلان فلسوف تمضى أيام طويلة قبل أن يندمل أو يطيب !

وتجرى القصة بعد ذلك مجرى الأمثال عما يمكن أن يفعله الحمق والغدر بالصداقة ، وعن الصراعات الدامية التى يمكن أن تنشأ فجأة بين البشر لأتفه الأسباب !

الكنـــز

فى أحد الشوارع المتعامدة على شارعنا تحل أسرة وافدة للإقامة فى مسكن حقير بالدور الأرضى ، تلفت الأسرة ـ منذ اليوم الأول لانتقالها إلى الشارع ـ أنظارنا بجمال ربتها وبدانتها ولون بشرة كل أفرادها الناصع البياض والذى يشى بأصلها التركى أو الشركسى ، كما يلفت أنظارنا أيضًا التناقض الواضح بين جسم الزوج النحيل للغاية وبدانة زوجته ، وتتسرب الأخبار بأن الرجل يعمل « كاتب حسابات » ويستعين على حياته بمسك الدفاتر لعدد من تجار المدينة والقيام بإجراءات الضرائب نيابة عنهم مقابل مبلغ زهيد سنويًا . .

ويطلق بعضنا العنان لخياله المحموم ، فيزعم أنه قد رأى وهو يمر أمام مسكن الأسرة مصادفة ، ربة البيت الجميلة فى ملابسها المنزلية . . وانبهر بلون بشرتها الوردى وكنز صدرها الريان ، ويلهبنا الخيال فنكرر المرور أمام البيت عسى أن تترفق بنا الأقدار فتتيح لنا نظرة مترغة منها وهى على هذا الحال . . فلا نرى منها سوى التحفظ والكبرياء ، ونلحظ

على العكس مما نتوقع رقة حال الأسرة وتقشفها ، ويتطوع أحدنا بتعليل ذلك بضآلة دخل عائلها وكثرة الأبناء ، لكن ذلك لا يقلل من حظه السعيد فى الحياة ، فالرجل يمضى فى طريقه مغتبطًا بأسرته ومحسودًا من الجيران على كنزه الثمين الذى لا يقدر بمال وهو جمال زوجته . . وتتناثر الحكايات فنعرف أنها عصب الأسرة ورجلها الحقيقى . . فالأبناء يهابونها بشدة وزوجها لا يملك من أمره معها شيئًا . . وعند الخلاف تتحول الأنثى الجميلة إلى نمرة شرسة وتتطاير الحمم من بركانها ويلوذ الرجل بالصمت العاجز . . ويسعى للاسترضاء .

وتنتقل الأسرة من الشارع القريب إلى مسكن أفضل فى شارع بعيد ، وتختفى السيدة الجميلة عن أنظارنا . . لكن أحد الرفاق وقد كان أكثرهم ميلاً لإساءة الظن بالنساء الجميلات بصفة عامة . . ينقل لنا أخبارًا عجيبة . . فيقول لنا نقلاً عما استرق السمع إليه فى مجلس أبيه : إن أحد التجار من هواة العشق والمغامرة قد سمع عن « كنز » الكاتب البائس فقربه إليه . . وغمره بعطاياه . . واطمأن الرجل إليه . . ودعاه إلى بيته . . فما أن رأى الكنز المستور عن قرب حتى فقد رشده . . وضاعف من هداياه للأسرة السعيدة واختلق المناسبات اختلاقًا لكى يزور كاتبه فى بيته محملاً بالهدايا ، ولم يغب عن ربة الأسرة مقصده من الوهلة الأولى ، ورضيت عن تلهفه عليها أو لعل قسوة الحياة قد دفعتها لكيلا تصده عنها أملاً فى مساندته لأسرتها فى المستقبل . . فأطالت فترة المراودة

والمناوشة حتى كاد العاشق ييأس من بلوغ الأمل . . واستعانت خلال ذلك بعطاياه السخية على تعليم أبنائها . . وقبل أن يقبض يده قانطًا أضاءت له الضوء الأخضر . . فتهالك عليها وبدأ مسكن الأسرة يستقبل العاشق فى زيارات دورية يكون الزوج خلالها مكلفًا دائمًا بعمل يقوم به فى تجارة العاشق ، والأبناء يلعبون فى الشارع ، أو مبعدين بالأمر عن البيت ، وشهدت الأسرة عهدًا جديدًا من الرخاء والأمان لم تعرفه طيلة حياتها . . وشق الأبناء طريقهم في التعليم بلا توقف أمام الأعباء ، وكعادة شارعنا فى تجنب الخوض فى الأعراض . . فهم الكثيرون ما يجرى حولهم . . لكنهم فضلوا الإبهام والغموض إذا اضطروا للإشارة إليه .

واستقر الحال على ما هو عليه سنوات طوالاً ، وكبر الأبناء وعملوا ، ومات الأب وتوقع العارفون أن يتوج العاشق قصته الطويلة مع معشوقته بالزواج منها ؛ خاصة أنها لم تفقد ـ بالرغم من كر السنين ـ جمالها الساحر، لكنه لم يفعل . . وقبل أن يتعجب البعض لذلك جاءت التفسيرات متناقضة من أكثر من اتجاه ، فقال الرواة : إن الأرملة الجميلة. . . ما أن مات عنها زوجها حتى أغلقت الباب فى وجه العاشق القديم . . ورفضت السماح له بزيارتها ، وطالبته بعدم التردد عليها بدعوى الاحتشام فى أواخر العمر ، كما رفضت أيضًا الزواج منه ، وبررت له ذلك برغبتها فى ألا تحرج أبناءها الذين بلغوا سن الشباب ، وقال آخرون: بل إن الرجل هو الذى رفض الزواج منها لإحساسه

الباطنى بعدم الاطمئنان إليها وهى التى عرفته وهى زوجة لغيره ؛ فضلاً عن عجزه أيضًا عن مواجهة أبنائه الكبار بمثل هذه المصاهرة التى لا ترضيهم ، ولهذا غضبت منه المرأة وقطعت علاقتها به . وقال راو منصف : إن المرأة لم تكن من الأصل راضية عما اضطرت إليه بحكم الحاجة وقسوة مطالب الحياة وأعباء تعليم الأبناء وهم هدف حياتها . . فما أن شقوا طريقهم فى الحياة حتى شعرت بأن حجرًا هائلاً قد انزاح عن صدرها . . وفضلت أن تضع الخاتمة الضرورية للقصة الطويلة وترجع للحياة الآمنة بلا خوف من المجهول ولا ترقب لانكشاف الستر .

وأيًا كانت المبررات فلقد عاشت هذه السيدة سنواتها الباقية من العمر . . كأرملة محتشمة ، ومات العاشق بعد حين شبه مفلس بعد أن أنهك التهتك تجارته ، وصارت القصة بكل فصولها من تراث العشق الآثم لشارعنا .

المشـــــروع

. . يخرج علينا أحد أعضاء الشلة باقتراح حكيم هو أن يدفع كل فرد منا قرشًا واحدًا ، لكى نجمع مبلغًا يسمح لنا بالتقاط صورة جماعية تصبح تذكارًا أبديًا للشلة . يتحمس الصبية للاقتراح الحكيم ويدفعون . . ويبدى ذوو اليسار أريحية مشكورة فيتطوعون لإكمال نقص من يعجزون عن دفع القرش كاملاً . . فيدفع بعضهم قرشًا ونصف القرش . . ويتهور البعض الآخر فيدفع قرشين كاملين . . ويحصى رئيس الشلة القروش فى يوم مشهود ومن حوله الرفاق ، فإذا به يقارب الخمسة عشر قرشًا . . ونشعر بأن الوقت قد حان للخطوة المرتقبة ، فنتجه فى مسيرة جماعية إلى استوديو التصوير ، ويذهب الرئيس ووكيله ليعبرا لصاحب الاستوديو عن رغبتنا ، ونترقب نحن النتيجة فيرجع الرفيقان محبطين . . ويصدماننا بأن المبلغ لا يكفى لالتقاط صورة ولو حتى بكاميرا التصوير التقليدية.القديمة التى يدخل المصور رأسه فى أستارها السوداء . . ذلك أن أقل مبلغ يسمح بتحقيق الأمنية هو عشرون قرشًا ، ويتبادل الصغار

الرأى فى المشكلة ، وتتعدد الاقتراحات . . فيقترح أحدهم أن يرجع كل صبى إلى أهله محاولاً انتزاع أى مبلغ منهم ولو كان مليمًا أو مليمين . . ويقترح آخر أن يزعم أحد الصبية أنه قد سقط منه شلن أعطاه له أبوه لشراء شىء للبيت . . ويصرخ ويولول فى الطريق العام مشفقًا مما ينتظره من عقاب رادع من أبيه إذا عاد إليه بالخيبة إلى أن ترق له قلوب المارة فيتطوعون لجمع المبلغ المفقود وإعطائه له . . بل ويغالى أحدنا فيقدم اقتراحًا عجيبًا هو أن يتوجه بؤساء الشلة ممن يرتدون الملابس شبه المهلهلة إلى مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى ليمارسوا الشحاذة أمامه إلى أن يجمعوا المبلغ المطلوب ، لكن الرأى يتفق فى النهاية على رفض كل هذه الاقتراحات لعدم جدواها من الناحية العملية . وينتصر رأى يطالب بالانتظار إلى أول الأسبوع المقبل حتى يقبض ذوو اليسار من أعضاء الشلة مصروفهم . . ويقبض بعض الكادحين الذين يعملون منهم فى الحرف أجرهم الأسبوعى فيقتطعون نصيبًا منه لصالح مشروع الصورة . . وتهم الشلة بالانسحاب يائسة ، غير أن صبيًا اتسم بين الجميع دائمًا بالجرأة المعنوية يقتحم الاستوديو بجلبابه المهلهل ويقول لصاحبه بجسارة : لماذا لا تصورنا وتقبل ما معنا من نقود . . ونحن لا نملك غيرها ؟

ينظر إليه الرجل متعجبًا للحظات ، ثم لا يلبث أن يبتسم ويشير برأسه علامة على الموافقة ، ويدعونا الولد الجرىء إلى الدخول منتصرًا . .

ونتراص فى فناء سماوى خلفى للاستوديو أمام ماكينة تصوير تقليدية عتيقة ، ويأتى المصور فينظم وقوفنا . . ثم يدخل رأسه فى جوف الكاميرا . . ويلتقط لنا الصورة . .

ونشعر نحن بزهو شديد لنجاحنا فى تنفيذ المشروع الخطير .

ونترقب فى لهفة شديدة تسلم الصورة أو الصور حسبما يسمح كرم المصور ، وبعد انتظار لا يطول يقدم لنا صاحب الاستوديو صورة باهتة مبللة بالماء نبدو فيها جميعًا كالأشباح ، ومع ذلك فنحن سعداء للغاية ومبتهجون . . لكن مشكلة أخرى تثار خلال العودة المظفرة إلى الشارع . . وهى : لمن يكون الحق فى الاحتفاظ بهذه الصورة اليتيمة دون غيره من الصبية؟

ويشتد الجدل حول هذه النقطة المهمة . . لكن رئيس الشارع يحسمه بإشارة مقتضبة منه بأنه سيحتفظ بها لديه . . على أن يكون للجميع حق الاطلاع عليها من حين لآخر ، فيخمد الجدل على الفور ، ويكون ذلك آخر عهدنا برؤية هذه الصورة التاريخية !

المثــل الأعلــى

يلفت مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة أنظارنا بأناقته ووسامته واتزانه .

وفى فترة تتعلق فيها القلوب الغضة بأحلام الأناقة والوسامة وإبهار الفتيات ، يصبح هذا المدرس هو المثل الأعلى لنا فى كل شىء، ابتداء من الذوق الرفيع فى اختيار ربطة العنق الملائمة للجاكيت ذى المربعات الذى يرتديه، إلى المنديل الأحمر القانى الذى يتدلى من جيب الجاكيت الأعلى ، إلى النظارة الشمسية الزرقاء التى تضفى على الوجه جمالاً ومهابة .. إلى الرشاقة فى الحركة والحديث . . ، بالإضافة إلى ابتسامة وقور لا تفارق الوجه واتزان فى القول والفعل يشى بالحكمة والعقل . . وهيبة طبيعية غير متكلفة ، فأى مثال أحق بالتقليد من هذا المثال ؟ وأى أمل يتطلع إليه فتى من أمثالنا أكثر من أن يصبح كهذا المدرس ذات يوم بعيد محط إعجاب الفتيات . . وموضع احترام الرجال ؟

ويدفعنا الشغف به لمعرفة كل شىء عنه، فنعرف أنه من هؤلاء المدرسين الغرباء الذين تأتى بهم حركة التنقلات إلى مدينتنا الصغيرة، فيقيمون فى مساكن مؤجرة ، يتشارك فى كل منها ثلاثة أو أربعة من

المدرسين ، ويتقاسمون قيمة الإيجار ونفقات المعيشة المشتركة ، ويقضون نهارهم فى المدرسة ومساءهم فى المقهى ، وقد يصابون أو يصاب بعضهم بآفات حياة العزوبية والغربة عن الأهل ، فيدمنون بعض ألعاب القمار الصغيرة ليلاً . . أو يشترون خفية من محل الخمور الذى يملكه الخواجة جورج زجاجة من الخمر الرخيصة ليقضوا معها السهرة ، فإذا طالت إقامتهم أو نسيتهم فيها حركة التنقلات لبعض الوقت ، عرفوا دروب المدينة الخفية ، وتسللوا من حين لآخر إلى بيوت الهوى البعيدة عن الأنظار ، أو زارتهم فى مساكنهم خفية . . بعض نجماتها .

ونتساءل نحن ، إشفاقًا على المثل الأعلى من الاهتزاز : ترى هل تطاله بعض هذه الآفات التى نتناقل أخبارها المكتومة فيما بيننا وتنعكس بالسلب على نظرتنا لبعض مدرسينا ؟

لكن الجواب المطمئن يجىء مؤكدًا أن الرجل على خلاف كل زملائه يقيم بمفرده فى مسكن نظيف مستقل يتحمل تكاليفه وحده ، فيؤكد ذلك إلى جانب الأناقة والملابس العصرية ، يسار الرجل ، وعدم اعتماده فى حياته على مرتبه وحده . . ويتبرع البعض منا فيقول إنه وارث لأرض زراعية وحدائق للفواكه المثمرة ، ويتبرع آخر فيؤكد ، عن ثقة ، بأنه قد تلقى العلم فى فرنسا على نفقة والديه ، كما كان يفعل أبناء الأماجد فى الزمن القديم . . وتضيف المعلومات الجديدة ملامح جديدة إلى الصورة ، فتزيدنا افتتانا بها وانبهارا . .

حتى لأسأل نفسى ذات يوم : من هو الإنسان الناجح فى الحياة

فأجيب على السؤال ـ ومن وحى الإعجاب «بالمثال» المضىء ـ إنه الإنسان الذى يجيد اختيار ألوان ملابسه ولون منديله وربطة عنقه ، ويقيم فى مسكن صغير نظيف بمفرده ، ويكتسى بالوقار والاتزان والجاذبية . . ويعرف الفرنسية وينطقها بمثل هذه اللهجة الساحرة التى يتميز بها المثال المحبوب !

وفى غمرة الإعجاب الطاغى بالرجل الرائع . . تهوى على رؤوسنا فجأة المطارق . . فيجرى إلينا فتى من الرفاق حاملاً إلينا نبأ عجيبًا ننكره حين نسمعه فى البداية . . ونتهمه بالكذب والافتراء ، لكنه ينجح فى إقناعنا بمصاحبته للتحقق منه، ونرافقه إلى الشارع الذى يقيم فيه المثل الأعلى فنجد جمعا من الكبار والصغار ينظرون إلى أعلى باهتمام وأسف . فنرفع الأبصار فنرى المثال المهيب يقف فى شرفة مسكنه الصغير مرتديا بيجامته المنزلية وقد تشعث شعره الغزير . وزاغت نظراته . . وفاض الزبد من فمه وحول شفتيه . . وقد رفع يده اليمنى إلى أذنه كما يفعل قارىء القرآن، وانطلق فى أذان متصل لا ينتهى حتى يبدأ من جديد وبأعلى صوت ممكن . .

ونرقب المشهد الغريب فى حزن وابتئاس ، وتصك تعليقات المارة آذاننا بكلمات التحسر على الرجل الوقور الذى أصابته لوثة مفاجئة لا تعرف أسبابها . . ويقترح آخر استدعاء الإسعاف لحقنه بمهدىء، ونقله إلى المستشفى، ويطالب البعض بإبلاغ الشرطة، قبل أن ينتهى الموقف بمشهد مأساوى يلقى فيه الرجل بنفسه إلى الشارع .

فلا تخلو اللحظة من جاهل صغير يرى فى الموقف ما يدعو للضحك بدلا من الأسى . . ويحل الظلام وما زال الأذان المتصل مستمرا بغير توقف .

ونرجع إلى شارعنا وقد استغرقتنا الأفكار الحزينة ، ونسمع فيما بعد أن عددًا من زملاء الرجل قد اقتحموا عليه المسكن ، وسيطروا عليه قبل أن يهوى من الشرفة إلى الأرض .

ويختفى المدرس الأنيق من المدينة للعلاج بالإسكندرية كما قيل لنا ، ونترقب عودته ذات يوم إلى مدرستنا وقد استرد ثباته ووقاره السابقين ، لكنه يغيب عن أنظارنا بعد ذلك إلى الأبد ، فلا نراه مرة أخرى أو نسمع شيئا عن مصيره .

وتتلقى صورة المثل الأعلى فى الأذهان الصغيرة طعنة دامية يصعب البرء منها !

غير أن الأيام تمضى فتجرف فى طريقها الأشجان والأحلام ، وتسقط من الصورة ملامحها المأساوية . . فلا يبقى منها إلا المفارقة العجيبة بين المثال الجميل ، وانهياره المفاجىء تحت وطأة ضغوط غير معلومة . . ، ويغالى البعض منا ، فيحيل الأمر كله إلى دعابة سخيفة ، فيتنبأ لمن يرغب فى النيل منه بأنه سوف يؤذن فى الشرفة فى القريب العاجل .

ويصبح تعبير الأذان فى الشرفة فى غير مواقيت الصلاة إشارة إلى الجنون وانهيار العقل دون مقدمات !

أحلام اليقظة

أحلم باليوم الذى أتخلص فيه من القيود وأستمتع بالحرية !

يداعبنى الحلم فى صحوى ونومى كلما اشتد إحساسى بالقهر والغليان .

أشكو إلى الله فى مناجاتى بطش المدرسين بنا . . وكتمهم لأنفاسنا طوال الحصص . . فحتى فترة الراحة القصيرة بين حصة وأخرى نُلام على الاستجابة خلالها لطبيعتنا كأطفال فى الحركة والصخب . . ويدخل إلينا مدرس الحصة التالية مكفهر الوجه ، لينعى علينا سوء أخلاقنا وعدم التزامنا بما ينبغى للتلميذ النجيب الالتزام به ، من الهدوء الكامل والجمود التام فى المقعد إلى أن يحل موعد الدرس الجديد . .

أتساءل بينى وبين نفسى عما أضرّ الحياة من حركتنا داخل الفصل خلال فترة الراحة القصيرة ، فلا أجد جوابا مقنعا ، ويظل الإحساس بالذنب ، لعجزنا عن الوصول إلى الدرجة المأمولة من الأدب ، مستمرا

ومنغصا . يسألنا مدرس الدين الشيخ محمود عن نواقض الوضوء ، فترتفع الأيدى تتبارى فى طلب الانتباه و إثبات الذات . . وأرفع يدى على استحياء فيشير إلىّ المدرس وأقف فى ثقة وأقول : اللعب فى التراب ! وبدلا من أن يعجب الشيخ المدرس بإجابتى « المنطقية » يسخر منى سخرية مريرة ويبشرنى بمستقبل مظلم . . وأجلس وعقلى الصغير يتساءل : إذا لم يكن اللعب فى التراب يفسد الوضوء فلماذا ينهانا عنه الكبار بصرامة . .

ثم أنزعج بشدة حين أرى مدرس الدين بعد أيام يزور أبى ليتحدث إليه فى أمور عادية ، لكنه ما أن يرانى بالمصادفة حتى يشير إلى قائلا لأبى فى دعابة سمجة : إننى لن أفلح فى الدراسة ! فأغتم للعبارة وأشعر بالخجل . . وأنتظر أن يحقق معى أبى فى أسباب هذه « النبوءة » المتشائمة . . لكنه لدهشتى لا يلقى إلى الأمر بالاً ولا يحدثنى فيه أبدًا ، وتمضى الأيام والأسابيع بطيئة وثقيلة وأؤدى امتحان آخر العام وصدى النذير الذى أنذرنى به الشيخ محمود يتردد فى أذنى فيرجف له قلبى . وتظهر النتيجة فإذا بى من الناجحين بل ومن المتفوقين ، وأشعر بشىء من «الشماتة» فيمن تنبأ لى بالفشل ، وأتمنى لو أذهب إليه وأبلغه نجاحى وتفوقى بلهجة التحدى والفوز . لكن هيهات أن أجد الشجاعة اللازمة لذلك ، فتظل الغصة فى النفس لا تجد من يداويها !

وأفرج عن مشاعرى المكبوتة فى الخيال الخصب الذى لا تحده

الحدود، وأرى نفسى فى حلم من أحلام اليقظة قد ذهبت إلى هذا المدرس ووقفت أمامه شامخاً، وأنهيت إليه خبر نجاحى وتفوقى، وقلت له بنفس اللهجة الساخرة التى انتقدنى بها فى حصته : أرأيت أنى لست من الفاشلين ؟

وأفعل ذلك فى الخيال أكثر من مرة فأشعر بشىء من الارتياح . . لكن الحلم الأكبر يظل مُلِحًّا على الدوام، وهو أن أتحرر من مذلة المدرسة الابتدائية ، وأنتقل إلى المدرسة الثانوية التى يروى لى عنها شقيقى الأكبر الأعاجيب، فالطلاب فيها كما يقول من «الرجال» وليسوا من الصغار مهدرى الكرامة مثلنا، ولا يجرؤ مدرس مهما علا قدره على أن يمس طالبًا بكلمة أو إشارة تسىء إليه ، ناهيك عن لمسه باليد أو بالعصا . . ومن يخطىء منهم ـ أى من المدرسين ـ ويتجاوز حدوده مع أى طالب ينال جزاءه على الفور من الطالب باللكم والضرب المهين وجذب ربطة العنق . . ولا يكون عقاب الطالب بعد كل ذلك سوى الفصل لمدة يومين أو ثلاثة من المدرسة !

فأى أشاوس أبطال هؤلاء الطلاب الميامين . . وما أبعد الفارق بين عزهم . . وذلنا !

وكيف يجرؤ أحد على المساس بهم وهم الذين يهدرون كل يومين أو ثلاثة بصيحات الغضب والاحتجاج فى مظاهرات صاخبة ضد الإنجليز

المحتلين . . والحكومات الضعيفة التى تمالئهم . . ومتى يتحرر الأرقاء من أمثالنا من أسرهم ، وينتقلون إلى دنيا الكرامة . . والأمان . .

وتقوم ثورة يوليو قبل أن يتحقق الحلم العسير . . ويسقط الملك ويتغير العهد . . ويجىء اليوم الموعود ، فأنتقل إلى السنة الأولى الثانوية . . وأستقبل حياة العزة والكرامة بقلب يخفق بالأمل . . وتمضى الأيام فلا أرى مدرسًا «يرتجف» أمام جبروت طالب عملاق كما كان شقيقى يروى لى . . ولا أرى طالبًا ينظر إلى مدرس نظرة نارية فيتجمد الدم فى عروقه كما حكى لى . . وإنما أرى نفس «التطاول» من المدرسين . . ونفس القهر الذى عانينا منه فى مدرسة الصغار . . وأرى الجميع يتملقون مدرسيهم ، ويخشون عقابهم ، كما كنا نفعل فى مدرسة الصغار . . وأكتشف ، بعد فوات الأوان ، أن القهر هو القهر فى مدارس الصغار والكبار على السواء وأنه لا كرامة لطالب ولا أمان إلا فى الجامعة ، كما يروى لنا الكبار العائدون إلى المدينة فى أجازة الصيف من كلياتهم !

وتتطلع النفس إلى أمل جديد ترجو ألا يكون من أحلام اليقظة . . كما كان الأمل القديم فى المدرسة الثانوية !

موظف الحسابات

يلفت نظرى بمظهره الرث ووجهه المحتقن وشفتيه المتورمتين من أثر الشراب.

أراه كل مساء يسير فى الشارع الرئيسى للمدينة ورائحة الكحول تفوح منه ، وقد طبع وجهه بطابع الإدمان واصطبغت عيناه بحمرة قانية ، أرقب بعطف رثاثة ملابسه وإهماله لمظهره، حتى لألحظ أن إحدى رجلى البنطلون الذى يرتديه أقصر من الأخرى بفارق محسوس ، لكنه إنسان مسالم ومهذب للغاية .. نحييه حين نصادفه، فيرد تحيتنا بأدب وابتسام، بالرغم من نظرة الاستخفاف البادية فى الوجوه، ويمضى فى طريقه متجاوزا عن سخرية الساخرين، ندرك رغم صغر السن أنه مخمور ، ونراه وهو يشترى زجاجات الخمر الرخيصة من محل التاجر اليونانى افتيمو بالسوق ، أو من محل الخواجة جورج بالقرب من محطة السكة الحديد، كما نراه جالسا أمام هذا المحل أو ذاك عند الأصيل هائمـًا فى دنياه الخاصة، يتطوع أصحاب النزعة العدوانية من الصغار

بالاحتكاك به كأن يتسابق اثنان فى الطريق، فيكاد أحدهما يدهمه خلال الجرى عامدا ، فيتفادى الرجل السقوط على الأرض بجهد كبير ، ويقبل اعتذار الشياطين له بنفس صافية . . مؤثرا حسن الظن بهم وبالجميع، يلحظ أحد الكبار ما يجرى فينهر الصغار المتحرشين، ويقول لهم : إنه رجل طيب ولولا آفة الخمر لكان من الصالحين !

لكن هيهات أن يقتنع الصغار بأن للمخمور حرمة ينبغى عدم المساس بها . .

ونتقدم فى العمر فنعرف أنه موظف الحسابات بالمدرسة الابتدائية ، وأنه يؤدى عمله فى الصباح على خير ما يرام . . ويتطوع لمساعدة الأهالى وإنهاء أوراق أبنائهم بسماحة ، ويحبه زملاؤه لطيبته وانحصاره فى ذاته ، فلا يذكر أحدًا بسوء . . ولا يطعن فى أحد، ثم يأتى إلى المدرسة التى يعمل بها ناظر جديد منقولا من مدينة أخرى ويتسابق المدرسون والموظفون للدخول عليه وتحيته، ويلحظ سكرتير المدرسة أن موظف الحسابات يتثاقل عن الدخول إلى مكتب الناظر الجديد . . فيسأله متعجبا : ألا تحيى ناظرنا الجديد لكيلا يسىء تفسير تقاعسك عن التعرف عليه . . فيرد باستحياء بأنه سيدخل إليه بعد أن يخف الزحام حوله . . لكن سكرتير المدرسة يلح عليه بالدخول معه . . ليعرفه به . . ويستجيب كارها ويدخل إلى الناظر فيصافحه فى خجل ذاكرا اسمه ووظيفته . . فما أن يراه الرجل حتى ينهض من وراء مكتبه ويعانقه وسط

دهشة المدرسين والموظفين ، ويرحب به بحرارة تشى بمودة قديمة ، ويقول للحاضرين إنه سعيد بأن يجمعه القدر مرة أخرى مع زميل الدراسة القديم . . ويحكى لهم من أمره أنه كان «ألفة» الفصل عليه طوال سنوات الدراسة الابتدائية ولمدة عامين فى المدرسة الثانوية قبل أن ينقطع عنها ، ويقول لهم : إنه طالما رتع هو والأصدقاء فى حديقة منزل هذا الزميل القديم، حيث كانت تقدم لهم الفطائر والأطعمة والمشروبات بسخاء ويقضون أجمل الأوقات فى ضيافة زميلهم الثرى .

ويذوب موظف الحسابات خجلا خلال الحديث ، وينصرف شاكرا ومرتبكا ، ويغادر المدرسون حجرة الناظر الجديد وهم يتعجبون لعدم إشارة موظف الحسابات هذا أبدًا إلى سابق عزه القديم، ويتساءل أحدهم : كيف تدهور به الحال إلى هذا المستوى . . ويسأل آخر : ترى هل تعرض والده لنكبة اقتصادية أضاعت ثروته وعطلت مسيرة ابنه الدراسية ، أم كانت الخمر هى بداية التدهور السريع على كل الجبهات؟

وتحرك القصة مياه الملل الراكدة لبعض الوقت ، ثم يسيطر الفتور على الحياة بعد قليل ، ويجد المتعاطفون فى سابق العز القديم سببا جديدا للإشفاق على الموظف البائس، ويحرص الناظر الجديد على حسن معاملته طوال فترة عمله بالمدرسة، لكنه ينقل إلى مدينة أخرى بعد

عامين، ويأتى ناظر آخر فلا يرى فى موظف الحسابات المدمن سوى مثال كريه يسىء إلى كرامة الموظف، ويقسو عليه بدعوى الحفاظ على هيبة الوظيفة ، فتكفهر سماء الموظف البائس الوحيد. . ويزداد استغراقًا فى الذهول والإدمان !

كتب للمؤلف

١ ـ أصدقاء على ورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٤ ـ صديقي لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٧ ـ صديقي ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٨ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٩ ـ اندهش يا صديقي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
١٠ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١١ ـ أرجوك لا تفهمني	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٢ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٣ ـ أماكن في القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٤ ـ لا تنسني	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٥ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٦ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعه	٢٠٠٠
١٧ ـ مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانيه	٢٠٠٠
١٨ ـ أوراق النيل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٩ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٠ ـ أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢١ ـ الخـ[illegible] فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٢ ـ سياحة في دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
٢٣ ـ قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	١٩٩٧
٢٥ ـ أهلاً . . مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٦ ـ قدمت أعذاري	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٧ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩

● **كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »**

٢٨ ـ حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعــة الأولى	٢٠٠١
٢٩ ـ صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعــة الأولى	٢٠٠١
٣٠ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٣١ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٣٢ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعــة الثالثــة	١٩٩٦
٣٣ ـ خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعــة الثالثــة	١٩٩٩
٣٤ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعــة الثالثــة	١٩٩٩
٣٥ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠٠
٣٦ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعــة الثالثــة	٢٠٠٠
٣٧ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠٠
٣٨ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠٠
٣٩ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠٠
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعــة الأولى	٢٠٠٠
٤٢ ـ الأرض المحترقة	قصص إنسانيــة	الطبعــة الأولى	٢٠٠٠
٤٣ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعــة الثالثــة	٢٠٠١
٤٤ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعــة الثانيــة	٢٠٠١
٤٥ ـ حكايات شارعنا		الطبعــة الأولى	٢٠٠١

الفهرس



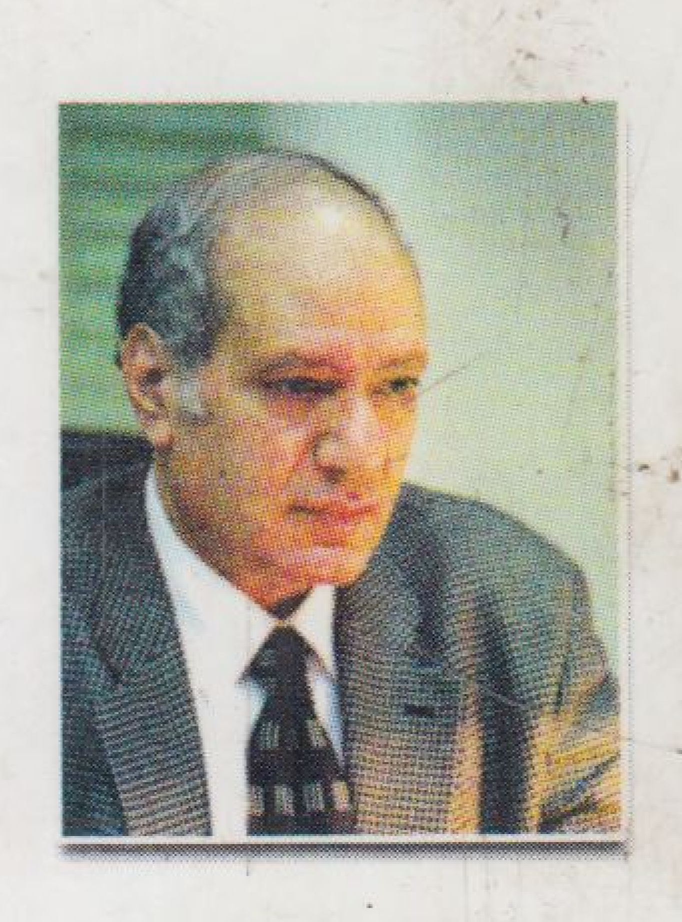
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043

حكايات شارعنا

ذكريات الماضى تستهوى الكثيرين من الكُتاب والأدباء والشعراء .. فهى منبع للإلهام ، ومصدر لعديد من المواقف والأحداث والحكايات.

وفى هذا الكتاب يأخذنا الكاتب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى سياحة ممتعة عبر الزمان والمكان .. ويحكى لنا فيها ثلاثة وثلاثين حكاية تتناول ذكرياته عن أيام الطفولة والصبا التى قضاها فى مدينة (دسوق) وهى مدينة صغيرة ولكنها شهيرة فى دلتا النيل.

وبهذا الأسلوب السلس الجذاب الذى يتميز به المؤلف نعيش معه تلك الذكريات التى نتعرف فيها عن أحوال الصبيان والبنات الذين عاصرهم أثناء فترة طفولته وصباه وأحوال وسلوكيات الشخصيات السوية وغير السوية من الكبار ، بالاضافة إلى مجموعة من الصور الأدبية المضيئة عن الأحداث والمواقف الإنسانية التى عاصرها المؤلف ومازالت عالقة بذهنه حتى الآن!



★ مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

★ يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له ٤٥ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب ال[illegible]

★ له ثلاث مجموعات قص[illegible] (أماكن فى القلب) (والحب فوق البلاط).

Bibliotheca Alexandrina
0681131



